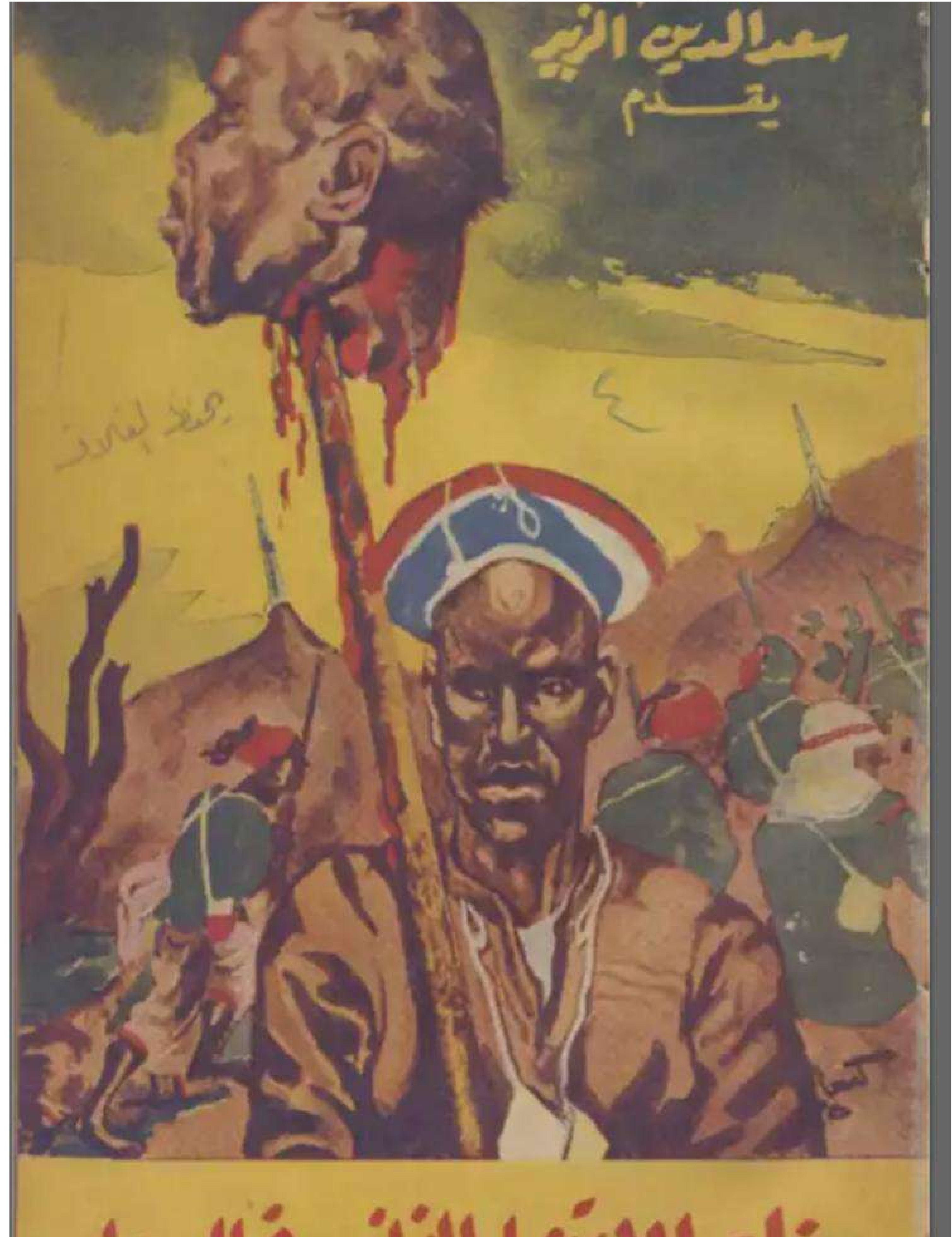


مذابح الاستعمار الفرنسي في السودان

قائمقام
سعد الدين الزبير
يقدم

امبراطورية
رابح الزبير

مذابح الاستعمار الفرنسي في السودان

الطبعة الأولى
١٩٥٣



المؤلف

الإهـــــداء

إلى الأبطال الذين كافحوا الاستعمار من أجل حرية أوطانهم .. في كل مكان . .

إلى الأحـــرار الذين سقطوا دفاعاً عن مبادئهم . . في كل زمان . .

إلى أخواننا في الجنوب .. الذين قدموا للبطولة واحداً منهم . . وللحرية قرباناً ما زالت آثاره تضيء لنا الطريق حتى اليوم . .

إلى أحفاد عمر مكرم . . والمهدى . . وعرابي . . والزبير . . وغيرهم ممن ذاقوا لذة الموت في سبيل حياة كريمة أفضل ، واكتووا بمرارة النفي والاضطهاد من أجل هدفهم الأسمى . .

أهدى سيرة رابح الزبير . . .

مقدمة

فى عام ١٩٠٠ ، وعند أسوار بلدة « كاسورى » الواقعة عند ملتقى نهر شارى « بلوجون » فى قلب أفريقيا الوسطى وهى المدينة التى عرفت فيما بعد باسم « فورت لامى » استطاع الاستعمار الفرنسى الذى انحدر اليها عن طريق مستعمرات الجزائر ونيجيريا والكونغو ، أن يصرع بطلا سودانيا ، وأن يستبيح لنفسه التمثيل بجثته والطواف برأسه فوق إحدى الحراب فى الأسواق بعد أن كان مجرد ذكر اسمه فى تلك البقاع كفيلا بأن يوقع الرعب فى قلب كل خائن أو غاز .

وهذا الكتاب يروى قصة ذلك البطل . رابح الزبير . . وقصة الاستعمار الفرنسى الذى ظل رابح قرابة عشر سنوات يكافحه باسم أهالى تلك البلاد كفاحاً مجيداً لم يبخل فيه بروحه أو أرواح رجاله وأفراد أسرته من بعده . وكان تيار الغزو قد بدأ يتنبه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى تلك الأراضى البكر فى مجاهل أفريقيا باعتبارها سوقا جديدة للاستغلال ومصدراً لا ينفد للمواد الخام اللازمة لعجلة الصناعة وقد بدأت تدور عندئذ فى أوروبا فى سرعة عاصفة . فكان طبيعياً عندئذ أن تلد

الحاجة فى تلك البلاد أبطالا يذودون عنها ذلك التيار الزاحف ، وكان رابح الزبير من بين هؤلاء .. كان ذلك القائد الذى صافح النصر فى أكثر من مائة معركة دارت خلال مساحة امتدت آلافا من الأميال من بحر الغزال شرقاً حتى شواطئ بحيرة تشاد غرباً .

ولست أدعى أن أحداً من هذا الجيل سواء فى شمال الوادى أو جنوبه قد سمع شيئاً عن رابح أو ألم بقصة بطولته على شدة حاجة تاريخنا الحديث إلى ذلك . وإلى التفتيش عن سير أبطالنا ونشرها على الناس والعالم أجمع ليعلم الكل أن صفحة أفريقيا ، فى كفاحها ضد الاستعمار ، تشرق بسير رجال لا يقلون بطولة أو خلوداً عن أبطال الغرب الذين لم تكف المطابع أو مؤرخيهم عن تزويدنا بتاريخهم واخبارهم فى كل مناسبة حتى لقد زحموا علينا حياتنا ، وحتى لقد كدنا ننسى أن لنا تاريخاً .. وأن لنا أبطالا .

ونحن لا ننكر أن البطولة الانسانية العميقة لا تعرف وطنا .. وأن أبطال الحرية فى فرنسا مثلا هم أبطالنا أيضاً فى مصر عندما يضطرنا كفاحنا هنا من أجل الحرية إلى أن نستلهم مثلا عليا خالدة . ولكننا ننكر أن ننسى قوميتنا فى زحمة الدعوة إلى العالمية حتى ليصبح النشأ فى بلادنا أكثر علماً بفولتير ، وجان دارك ، وجان جاك روسو ، وابراهام لنكولن ، وغاندى ، منهم بعمر مكرم

وأحمد عرابى ، وعبد الله نديم ، والزبير رحمت ، ورابح الزبير ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد . .

من المسئول عن ذلك . . ؟

المسئول الأول هو الاستعمار من غير شك . . الاستعمار الذى لم يستبح أرضنا وقوتنا وأرواحنا فحسب ، وإنما استباح أيضاً ثقافتنا وفكرنا وعقولنا فحرم علينا بذلك أن نقرأ أو نكتب عن سير أبطالنا ممن رفعوا أعلام الجهاد ضده وبذلوا فى حربه من دمائهم وأرواحهم ما يتضائل بعده كل بذل أو فداء .

لقد فعل الاستعمار هذا فى كل مكان حل به . . فعله لكى يحافظ على كيانه ووجوده وإلا فهل كان الاستعمار الانجليزى يقوى على أن يظل سبعين عاماً جاثماً على صدر الوادى شماله وجنوبه لو كان قد أتيح لأبنائه مثلا أن يشبوا على معرفة تامة صادقة بكفاح عرابى ضده فى الشمال وكفاح المهدى والزبير فى الجنوب فيعلموا بذلك أن ضحايا معارك الاسكندرية والتل الكبير وأم درمان ما زالت تصيح فى طلب الثأر . ؟

وهل كان هذا الاستعمار نفسه يقوى على الادعاء بأن جنوب السودان لما يزل على حال من البداوة لا تسمح له بأن يشارك فى تقرير مصيره لو كان قد أتيح لأهله يوما أن يقرأوا عن كفاح رابح كاين من أبناء هذا الجنوب أقام امبراطورية ، وحكم شعوباً ،

وقاوم جيوشاً ، ونشر الدين والعلم والحضارة فى قلب أفريقيا المظلم ..

كل هذا حدث فى أواخر القرن التاسع عشر أى منذ أكثر من خمسين عاماً . !

وهل كانت فرنسا تقوى على خداعنا وخـــداع الشعوب المستضعفة بأنها أم الحريات لو كان ابناؤنا بدلا من أن يلقنوا فى مدارسنا الشيء الكثير عن بطولات نابليون وفتوحاته ، يلقنون تفاصيل ما فعله نابليون هذا بخيله فى صحن الأزهر أو ما أوقعه من مذابح بعلماء القاهرة وأبنائها إبان ثورتهم عليه ، أو ما ارتكبه خلفاؤه بعد ذلك من بربرية ووحشية فى وسط أفريقيا عندما اجتزوا رقبة رابح وعلقوها فوق حرابهم ثم أتاحوا لفنانيهم أن يرسموا صورتها وأن ينشروها فى كتبهم وهى تنزف دما وقد تدلت عروقها وأغمضت عيناها وكأنما لتتاح لهم فرصة معاودة النظر إلى الصورة بين الحين والآخر فتلتذ بذلك نفوسهم وتطرب أرواحهم المتعطشة إلى السفك والتدمير وإراقة الدماء .

* * *

ولكننا اليوم فى عصر بعث جديد . .

فان مؤامرة الاستعمار ضد تاريخنا وثقافتنا قد أزيح عنها الغطاء ورفع الحظر عن اسماء لم تكن تذكر من قبل إلا همسا وفى سطور

قليلة متواضعة كاسم عمر مكرم الذى لم يكن يعرف عنه سوى القليل فاصبح اليوم علماً يدوى فوق المنابر وفى جنبات الميادين ، وبدأت البلاد تشعر بحاجتها إلى التعرف على أبطالها وكتابة تاريخهم من جديد ففاز عرابى ببعض مايستحقه من تقدير ، وبدأت توضع عنه والألسنة تكثر من ذكره ، كما بدأ تاريخ المهدى الكبير فى السودان يتضح رويداً رويداً فاذا بنا نطالع فيه حقيقة كبيرة رائعة كان الاستعمار قد حرص دائما على إخفائها : وهى أنه لم يكن عدواً لمصر وإنما عدو للانجليز وحدهم . كذا لم تكد البلاد تحتفل من جديد بذكرى مصطفى كامل حتى نشرت صحائف كانت قـــد طويت عمداً بالأمس فعرف أكثرنا مالم يكن يعرف عن ذلك الزعيم الشاب الذى هز عرش اللورد كرومر فى مصر ..

واليوم أيضاً يدخل اسم رابح مع غيره فى دائرة الضوء الذى يلقيه على تاريخنا شمس البعث الجديد فإذا بنا نستطيع أن نتحدث عنه فى صراحة وحرية ، وإذا به هو اسم يشرف الجنوب ، وذكرى تثير الزهو فى نفوس رجال الحرب ممن خاضوا المعارك وعرفوا أسرار الحرب والنصر ، وتبعث الفخر فى قلوب الأحرار وهم يقرأون حياته كدرس حبيب .

ooo

وحيث تكون البطولة تكون الخيانة أيضاً . . وحيث يوجد

الأحرار الذين يبيعون دماءهم فى سبيل بلادهم يوجد الفريق الآخر الذى يبيع بلاده من أجل أن توهب له حياة كالذل أو أشد ظلاما . . ولولا هذا التناقض الذى يكوّن بعض طبيعة الحياة وأساسها لما استطعنا أن نضع لأعمال البشر مدلولات محددة كالبطولة والحرية والخير والجمال . .

ومن هذا التناقض تصبح سير الأبطال والأحرار مجالا لتفاعل حى مستمر يستثير مع الاعجاب الضيق والسخط والثورة . . فمع النور فى تلك السير نحس بالظلام ونضيق به . . ومع البطولة فيها نتعرف على حدود الخيانة فنسخط عليها ومع الحرية أيضاً نلمس قوى البطش والاستبداد فنثور عليها . . أجل : نضيق بكل ظلام ونسخط على كل خيانة ، ونثور على كل بطش واستبداد .

وهكذا كانت حياة رابح . . ففيها من هذا التفاعل المستمر مالا يكاد يقف بنا عند زمن معين أو تاريخ بعينه أو حادثة بذاتها . . فلسوف تذكرنا خيوط الخيانة التى اصطدم بها رابح بخيانة توفيق خديوى مصر عندما استعدى قوات الانجليز على شعبه المسالم ، كما سنلمس فى بطش الاستعمار الفرنسى واستبداده صورة أخرى لما يدور اليوم من أحداث وفواجع فى تونس ومراكش ، ومن خلال الظلام والموت الذى أشاعته القوات الفرنسية فى هجومها على تلك الربوع الوادعة وهى تشرد النساء والأطفال وتحرق

دورهم وأقواتهم سوف نلمح مأساة الأطفال والنساء من أهل فلسطين وقد شردهم الاستعمار ، وحرمهم القوت والمأوى ..

ولا أحب أن يفهم عنى أحد أنى أقصد بقولى هذا ما يقول به البعض الآخر من أن التاريخ يعيد نفسه .. فما من شىء يرجع إلى الوراء والحياة لا تكرر نفسها ولا يمكن أن يكون هذا هو الدرس الذى نفيده من قراءة التاريخ .. وإنما أردت أن أقول إن الحقيقة واحدة فى كل مكان وأن الاستعمار الذى كافحه رابح منذ خمسين عاماً هو نفس الاستعمار الذى يقبض على عنق تونس ومراكش اليوم وهو نفسه الذى يطبق على فلسطين بأنيابه ..

إذن فنحن نثأر لرابح عندما نثور على كل استعمار ، ونثأر لكل شهيد عندما نحطم كل ظلم ، وليست سير الأبطال سوى دعوة للثأر ، وليس تاريخ المكافحين سوى حض على الكفاح ..

° ° °

أما بعد .. فقد قيل لى وأنا أعد صفحات هذا الكتاب أنه خليق بأن يحمل إلى أبناء جنوب السودان شيئاً من أخبار قائدهم رابح ربما يكون النسيان قد عدا عليها ، وأنهم سوف يتلقفونه كما يتلقف الابن رسالة من أبيه الذى غاب عنه طويلا ..

وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد بعيد .. ولكننى مع ذلك لا أعد هذا الكتاب لأبناء الجنوب وحدهم بقدر ما أسوقه أيضاً

لرجال التاريخ فى مصر ممن شغلتهم الأحداث عن كتابة حاضر السودان وماضيه فباتت بذلك مكتبتنا العربية تعانى حتى اليوم نقصاً كبيراً فى هذه الناحية على ما لها من أهمية وخطر ..

فإن استطاعت هذه الصفحات أن تثير واحداً من كتابنا الأجلاء لينفض تراب النسيان عن بطل آخر من أبطال السودان ، فإن مجهودى فى تقديم هذا الكتاب يكون قد أثمر ثمرته المرجوة ، وتكون كل مشقة بذلتها فى تجميع مواده من مختلف المصادر رخيصة إلى جوار ما حققه من أهداف وبذا يكون قد نجح الكتاب أخيراً فى أداء رسالته نحو شمال الوادى وجنوبه .

والله ولى التوفيق ... ؟

قائمقام

سعد الدين الزبير

القاهرة فى يوليو ١٩٥٣

نشأة رابح

تحت لواء الزبير

« أصل رابح – عصابة الزبير – جيش الزبير
رابح يقضي على البلالي – المدرسة التي تربى
بها رابح – الزبير يغادر السودان – من
مذكرات الزبير . . »

فى نحو عام ١٨٤٦ وفى قرية من قرى بحر الغزال حيث كانت تعيش قبائل متعددة الأسماء والعادات واللهجات وان اشتركت جميعها فى أنها تعيش على حال من البداوة الأولى، وتغرق فى ظلمات من جهل كثيف ، ويتقاتل بعضها مع بعض فلا تهدأ المعارك بينها يوماً واحداً . . فى تلك البيئة المضطربة التى يحكمها قانون الغابة الأول وتتصارع فيها قوى العبودية والظلام . . خرج « رابح » إلى الدنيا . .

خرج « رابح » إلى الدنيا بعد خمسة عشر عاما من مولد رجل آخر فى الشمال هو « الزبير رحمت العباسى » الذى كان قد تفتحت عيناه فى الثامن من يوليو عام ١٨٣١ على حياة من نوع آخر فى جزيرة « واوسى » التى لم تكن تبعد كثيراً عن الخرطوم حيث الأمن ، والدعة ، والسلام تنشر أستارها الهادئة البيضاء . .



الفريق الزبير رحمت باشا

ولقد قدر لهذين الرجلين بعد ذلك ، وعلى بعد ما بينهما من زمن ونشأة ومكان أن يلتقيا فى منطقة بحر الغزال ، وأن تتصل بينهما الأسباب فى وقت كانت فيه تلك الأصقاع قد بدأت تهتز تحت زعامة الزبير الشعبية متطلعة فى ظلها نحو حياة أسعد وأفضل ، وأن تبلغ منزلة رابح ، ذلك الشاب المغامر الجرىء ، منزلة رفيعة سامية من نفس الزبير فيقربه اليه ويسلمه قيادة جيشه وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ثم لا يلبث أن يتبناه ويضيف إلى إسمه لقب « الزبير » ليعرفه تاريخ الجنوب بعد ذلك ، وتعرفه وقائع الجهاد ضد الاستعمارين الفرنسى والانجليزى فى زحفهما نحو قلب أفريقيا ، باسم « رابح الزبير . . . »

ولقد تضاربت الأقوال فى حقيقة نسب ذلك القائد فظل غامضاً حتى اليوم وأن كان القول الراجح بشأنه ، وهو الذى أيده القائد الفرنسى « أميل جنتيل Emile Gentil » الذى قاد المعارك الأخيرة ضد رابح ، أنه كان ابنا لأحد ملوك القبائل التى تستوطن حوض بحر الغزال وأنه نشأ نشأة حربية خالصة فشارك أباه وهو لما يزل صغيراً فى المعارك التى يخوضها ضد القبائل المجاورة ، حتى لقى أبوه فى النهاية مصرعه فى إحدى تلك الغزوات وكان رابح ما زال شاباً يافعاً ، وكان نجم الزبير قد بدأ يعلو وصيته قد بدأ يذيع جاذباً حوله الأنصار والأتباع من أهل تلك البلاد ،

فانضم إليه رابح ومنذ ذلك الحين بدأ قدره الذى ربط بينه وبين الزبير يعده فى صبر وأناة لكى يلعب دوره المقبل .

° ° °

إن تاريخ الزبير وارتباطه الوثيق بحياة رابح الأولى بل وبعجلة التطور عامة التى لحقت باصقاع السودان الجنوبية فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ليجعل من المستحيل على من يريد أن يؤرخ لهذه الحقبة الهامة من تاريخ السودان أن يغفل عن الالمام به والتعرف عليه . وبالرغم من أن ذلك التاريخ بتفاصيله الممتعة ليس مكانه فى الواقع هو هذا الكتاب [1] ، إلا أن ذلك لن يمنعنا من التعرض له هنا فى إيجاز بقدر ما تفرضه علينا محاولة تتبع نشأة رابح والظروف التى أعدته ليكون قائداً ممتازاً .

نزح الزبير إلى الأصقاع الجنوبية فرداً مغموراً أول الأمر فى خدمة واحد من كبار التجار هو « على أبى عمورى » فلم تلبث شجاعته وهمته أن برزت به إلى الصفوف الأولى ولفتت اليه أنظار مخدومه الذى لم يجد بدا من اختياره كمساعد له غير أن الآمال التى كانت تجيش فى صدر الزبير لم تقنع بذلك النجاح بل دفعته ، وقبل أن يمضى على وصوله إلى تلك البلاد وقت طويل ، إلى أن يستقل فى عمله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه هو .

---

(١) راجع كتاب (الزبير باشا رجل السودان) ـ المؤلف.

ورويداً رويداً مضت تجارة الزبير تنتقل من رواج إلى رواج وساعدته مصاهرته للملك « تكمة » ملك نيام نيام على توسيع دائرة نفوذه وتجارته ، كما ساعده ما جبل عليه من مهارة فى اجتذاب القلوب ومن حسن معاملته لتابعيه على ذيوع صيته فى تلك الأصقاع مما حدا بالناس إلى الدخول فى خدمته ، وكان من بينهم رابح كما قدمنا .. ولقد أدى كل هذا إلى توطيد مركز الزبير ونمو زعامته نموا أخاف ملك نيام نيام نفسه وملوك القبائل المجاورة فمضوا يحتكون به ، ويكيدون له ، ويتربصون بتجارته الأمر الذى دفع الزبير إلى التفكير للمرة الأولى فى أن يتخذ لنفسه جيشاً ، لحماية تجارته ونفوذه المتزايدين ..

وكانت العادة قد جرت فى تلك البلاد على أن يعرضوا للبيع فى الأسواق أصحاب الجنايات كاللصوص والزناة حيث يذبحون كالنعاج وتباع لحومهم طعاماً لمن يشترى . ولقد انتهز الزبير الفرصة فكان يفتدى من الذبح من بين هؤلاء الجناة من يراه أهلا لحمل السلاح حتى اجتمع له نحو خمسمائة رجل اعتقهم من ذلك المصير المرعب فضمن بذلك ولاءهم المطلق له ثم زودهم بالسلاح بعد أن دربهم على استعماله وبهذا كوّن النواة الأولى لجيشه ، وبهذا الجيش مع من دخل فى خدمته من أهل البلاد حارب الزبير الملك « تكمة » والملك « دوية » والملك « شكو » وكان هؤلاء من أقوى ملوك

القبائل فى تلك المنطقة فما كاد يفرغ من هزيمتهم حتى دان له باقى الملوك بالطاعة والولاء واستتب له الأمر فى منطقة مترامية الأطراف فى حوض بحر الغزال فلم يلبث أن اتخذ من « بابة » وهى التى عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزبير » عاصمة له يدير منها شئون مملكته المتزايدة النمو ويستقبل فيها أفواج الناس ورؤساء القبائل الذين يقبلون الانضمام اليه [1] .

° ° °

أظهر رابح فى خدمة جيش الزبير من الموهبة الحربية ما لفت اليه أنظار ذلك الرجل الذى كان يعرف حقا كيف يختار الرجال والذى لم تخطىء فراسته أبداً فى الحكم على مواهب من حوله من الأتباع .

وكان الزبير إبان زيارته للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال قد التقى هناك بكثير من العبيد الذين آثروا الفرار من أسيادهم فى بلاد الكلكلة ودار التعايشة وغيرها من المناطق وأقبلوا نحوه يطلبون الأمان ، ولما كان الزبير فى حاجة إلى إعادة تكوين جيشه الذى استهلك نوانه الأولى قتاله مع القبائل المحيطة به ، لذا فقد اختار من بين هؤلاء العبيد حوالى الستمائة من الرجال الأشداء وزودهم بالسلاح والذخيرة وأسند قيادتهم لرابح وهو

---

(١) كتاب « العاج الأسود » لمؤلفه هـ . جاكسون صفحة ٣٠

لما يزل شابا فى نحو الثالثة والعشرين من عمره والذى كان بلاؤه وإخلاصه ومقدرته الفذة فى تأديب العصاة من رجال القبائل المحيطة بأملاك الزبير قد أسرع فى الصعود به درجة أثر درجة ، وأهله ولما يمض على التحاقه بجيش الزبير أكثر من عامين لأن يحتل من قلب الزبير مكان الابن تماماً حتى أنه لم يتردد فى النهاية فى إعلان تبنيه لهذا الفتى الشاب الذى يحذق فنون القتال حذقا غريباً وضمه إلى أسرته [1] .

أخذ جيش الزبير بعد ذلك ينمو فى سرعة عجيبة ويتزايد عدده بمن يقبلون للتطوع فيه من أهل البلاد كما قدمنا . وهكذا عندما تعرضت قوة الزبير الحربية لأول خطر جدى صادفته ممثلا فى حملة البلالى الذى أرسله خديوى مصر إسماعيل باشا كان جيش الزبير عندئذ قد بلغ حوالى الأربعة آلاف رجل أبقاهم الزبير تحت قيادة قوادهم وزعمائهم أنفسهم وإن كان الجميع بعد ذلك يخضعون فى النهاية للقيادة العليا التى أسلمها إلى رابح دون أن يندم على ذلك يوماً واحداً فيما بعد .

* * *

(١) كان من عادة الزبير أن يتبنى الأفراد من أهل الجنوب ممن يظهرون حذقا ومواهب ممتازة وينزلهم من نفسه منزلة الأبناء . ولقد تبنى إلى جوار رابح ، رجب الزبير من مواليد بحر الغزال وقد ألحقه عند حضوره إلى مصر بخدمة البوليس المصرى حتى بلغ رتبة معاون إدارة مركز تلا وتوفى بمصر . كما تبنى على فائق الزبير الذى صاحبه فى منفاه بجبل طارق وتوفى وهو ما زال طالبا بالسنة النهائية بالكلية الحربية بالقاهرة ، وغيرهم .

قلنا أن الزبير في أوائل عهده بحكم تلك البلاد التي دانت له بحد السيف قد تعرض لخطر جدي ممثلا في حملة البلالي . والبلالي هذا كما قال عنه المستكشف الألماني الدكتور جورج شفاينفورث في كتابه « في قلب أفريقيا » رجل أفاق استطاع أن يخدع خديوي مصر وأن يضلل حكومته عن حقيقة الوضع في بحر الغزال لتضعه على رأس قوة توجه لاحتلال « حفرة النحاس » وهي بلدة تقع على شواطيء بحر الغزال واستغلال مناجم النحاس بها لحساب الحكومة المصرية . وكان لا بد لهذه القوة إن آجلا أو عاجلا أن تصطدم بقوة الزبير بوصفه الحاكم الفعلي لتلك المنطقة [1].

ولكن الزبير لم يكن في نيته على أي حال أن يقاوم الحكومة المصرية فعمد في أول الأمر إلى تسهيل مهمة البلالي ومده بكافة المساعدات التي تعينه على تنفيذ أهداف حملته غير أن البلالي هذا لم يلبث أن تجاوز حدود مهمته فمضى يؤلب التجار على الزبير ويكيد له ويحرض القبائل ضده فكان لابد للزبير في النهاية من أن يصطدم بالبلالي اصطداما مباشرا اتاح له أن يجرب قوته الحربية ومقدرة قائده الشاب زابح في معركة حقيقية لأول مرة ضد جنود نظاميين .

نشبت الحرب إذن بين الزبير والبلالي بعد فترة من المهادنة لم تدم طويلا . . وكانت قوات البلالي تتألف من أربعة آلاف

---

(١) « في قلب أفريقيا » لمؤلفه جورج شفاينفورث الجزء الثاني صفحة ١٩٥ ــ ١٩٧ .

جندى نظامى مزودين بالعتاد والذخيرة [1] أما رابح القائد الأول لجيش الزبير فقد كان متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة بعيدة .

وبعد عدة مناوشات متفرقة التحم الزبير بالبلالى فى أول معركة جدية عند أسوار عاصمته « ديم الزبير » لم تلبث أن انتهت بارتداد البلالى إلى « دار موفيو » بعد أن كبد قوات الزبير خسائر جسيمة وبعد أن أصيب الزبير نفسه بجرح خطير فى قدمه اليمنى عاقه عن مطاردة البلالى واضطره إلى العودة إلى عاصمته محمولا على اكتاف رجاله .

مضى البلالى بعد ذلك يتحصن فى « دار موفيو » ويعيد تنظيم قواته استعداداً لمعاودة الهجوم على الزبير الذى كانت حالته الصحية قدبدأت تسوء سوءاً بالغاً من جراء الجرح الذى أصيب به حتى لقد باتت حياته يتهددها خطر الموت تهديداً بالغاً . فى هذه المرحلة الحرجة عاد رابح من مهمته البعيدة إلى « ديم الزبير » ليجد ربيبه وقائده على هذه الحال من السقم ، والعدو متربص بهم مستعد للانقضاض عليهم فكان عليه عندئذ أن يحمل العبء بمفرده وأن يخوض معركة حياة أو موت ضد البلالى وهى المعركة التى كان يتوقف على نتيجتها تقرير مصير الملك الذى أقامه الزبير فى تلك المنطقة والتى

---

(١) راجع كتاب « العاج الأسود » صفحه ٤٠ . وكتاب (تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته) تأليف نعوم بك شقير صفحه ٦٧ .

يعتبرها المؤرخون بحق نقطة البدء فى سلسلة الانتصارات الحربية والسياسية التى أحرزها الزبير بعد ذلك فى جنوب السودان .

التقى رابح بالبلالى عند « ديم جيجو » بالقرب من دار موفيو وكان الأخير قد بدأ سيره لمعاودة الهجوم على ديم الزبير . ونشبت المعركة بينهما فى فجر يوم من أيام إبريل عام ١٨٧١ فلم تلبث أن دارت الدائرة على البلالى بعد قتال مرير كلفه حياته وأوقع بقواته هزيمة ساحقة قضت عليها نهائيا ..

وقفل رابح ، القائد الشاب الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، عائداً إلى ديم الزبير بهذا النصر الرائع الذى دفع حكومة الخديوى بعد ذلك إلى قبول الأمر الواقع والاعتراف رسميا بوضع الزبير القائم فى منطقة بحر الغزال كحاكم وسيد لها ، والذى لم يلبث أن ذاع فى أرجاء السودان كله فدعم مركز الزبير ومقدرة قائده رابح تدعيما رائعا حتى أنه لم يكد يمضى على هذا النصر عام واحد حتى كان للزبير جيش يبلغ تعداده حوالى الأثنى عشر ألفا وعلى رأسه نفس القائد الشاب رابح الزبير ..

* * *

كيف اتفق للزبير أن يترك القيادة العليا لجيش ضخم كهذا لم تشهده أصقاع الجنوب من قبل لشاب يافع كرابح فى الوقت الذى كان فيه هذا الجيش يضم بين أركانه رؤساء للقبائل وملوكا حنكتهم التجارب يكبرون رابح بعشرات السنين . ؟

للاجابة على هذا التساؤل يجدر بنا أن نقف قليلا لنفصل بعضا من جوانب السياسة التى كان ينتهجها الزبير فى حكم تلك البلاد وقيادة شعبها .

كان الزبير حريصا دائما، وهو الذى وفد إلى تلك البلاد قادما من الشمال ، على أن يفهم أهلها تماما أنه لم يجئها غازيا أو فاتحاً . . فالجيش الذى التف حوله كان كله من أهل تلك البلاد أنفسهم ، وقواده من بين رؤسائهم وملوكهم وهو وإن كان قد تحالف مع هؤلاء الملوك والرؤساء وضمهم إلى جيشه إلا أنه لم ينس أنه قد سلبهم سلطانهم المطلق على رعاياهم وأن محاولاته نشر الأمن فى تلك الربوع ، واشاعة العدل بين الرعايا هى فى الواقع أضعاف غير مباشر لنفوذ هؤلاء الرؤساء القائم على السلب والاغتصاب .

لذا فقد كان طبيعيا عندما يفكر الزبير فى إسناد قيادة جيشه العليا لواحد من أبناء البلاد أن يتخطى هؤلاء الكبار وأن يختار لذلك رابح ، ابن الجنوب البكر ، لا لأن رابحاً هذا كان أسيرا عنده مقرباً إلى نفسه كما قد يتبادر إلى الظن ، فالزبير لم يكن أبداً ممن يسمحون للعواطف أن تفسد عليهم خططهم ، وإنما لأن رابحاً كان إلى جوار مواهبه الحربية التى مرن عليها منذ فجر صباه يمثل بالنسبة للعهد الجديد الذى أراد أن يقيمه الزبير فى بحر الغزال : التطور الجديد والفكرة الجديدة والعزم الجديد . . ولكى نزيد هذا الكلام وضوحاً نقول أن

الزبير كان يريد أن يخرج بالبلاد التى أسلمته زعامتها من الطور القبلى الذى كانت تعيش فيه إلى طور الأمة الموحدة التى يسودها عهد جديد يعم فيه الرخاء عن طريق ازدهار التجارة وينتشر فيه نور العلم بين الجميع مع انتشار نور الاسلام بينهم . فالزبير كان تاجراً وهو لم ينس هذه الصفة حتى بعد أن أصبح حاكما وسلطانا وكان من المستحيل أن تزدهر التجارة وأن تكون بلاده ملتقى لطرق التجارة الآمنة إلا إذا حقق أهدافه هذه . وكان لا بد له لتحقيقها من القضاء على سلطة رؤساء القبائل الذين تتعارض مصالحهم البدائية مع هذا الهدف البعيد .

ولقد أثبت رابح فى ذلك الزمن القصير الذى انقضى على التحاقه بخدمة الزبير من المواهب العسكرية ما أهله ليكون الساعد الأيمن للزبير فى تنفيذ سياسته هذه فكان طبيعيا أن يقربه إلى نفسه وأن يطلق يده فى قيادة الجيش الذى كان يعول عليه فى تحقيق أهدافه .

ولقد تعلم رابح فى كنف الزبير الشىء الكثير عن حكم الشعوب وفن قيادتها حتى لتعتبر تلك الفترة من حياته التى قضاها محاربا تحت الوية الزبير المدرسة الحقيقية التى أعدته فيها الأقدار بنجاح لكى يلعب الدور الذى كان ينتظره فى ممالك برنو وودّاى وعلى شواطىء بحيرة تشاد بعد ذلك . ولعل رابحاً بذلك يكون مدينا

الزبير بكل ذلك النجاح الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد وإن كان هذا لا ينقص من قدر رابح شيئاً كما لا ينقص من قدر الزبير هو الآخر أنه يعتبر مدينا لرابح بالكثير من فتوحاته وانتصاراته .

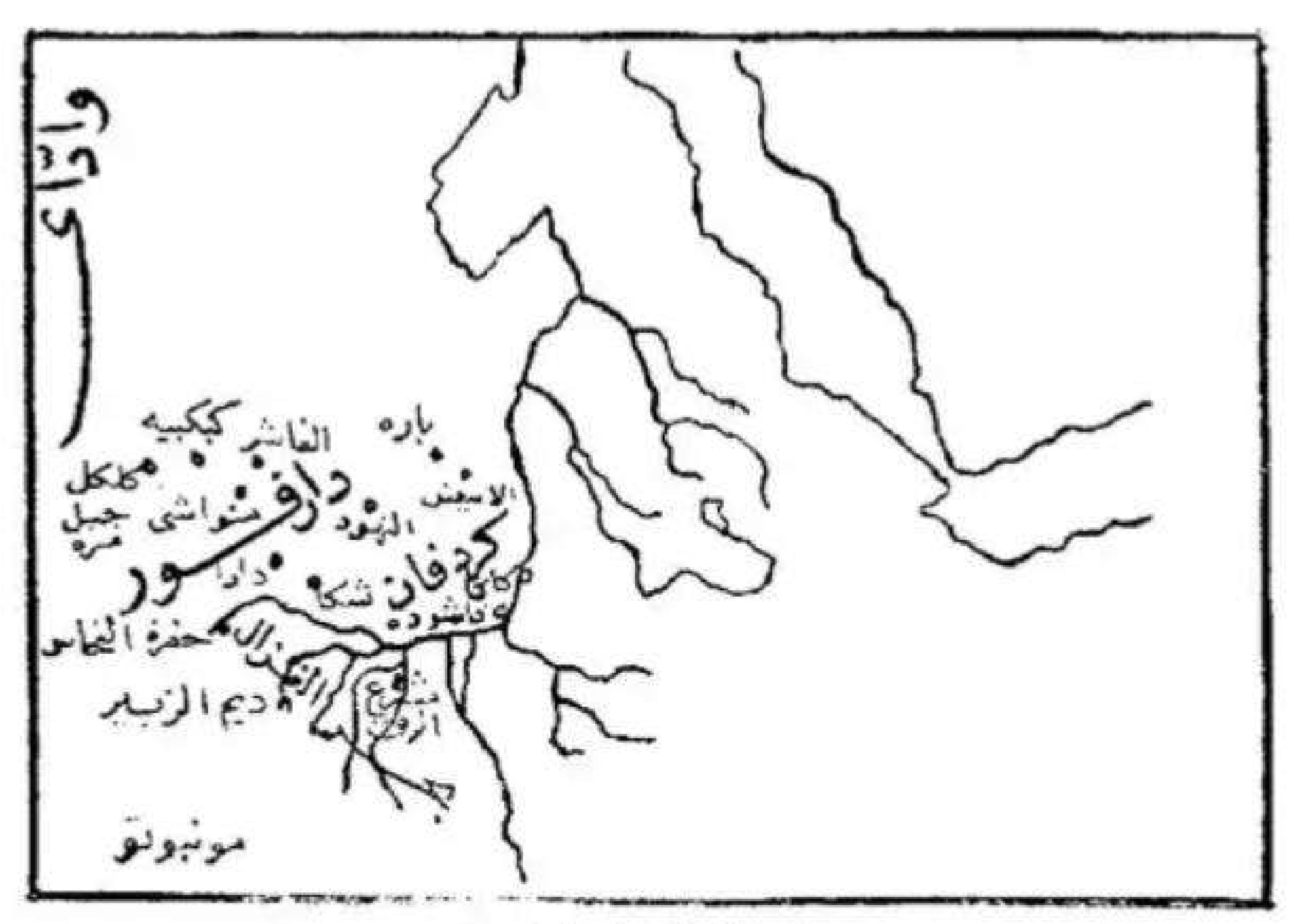
وسوف نرى فى الفصول القادمة كيف سار رابح فى حروبه ضد الاستعمار الفرنسى للسودان الوسطى ، وفى محاولة تكوين امبراطورية تصمد للفتح الفرنسى وتجمع بين القبائل المتناثرة حول بحيرة تشاد وسواحل نهر شارى فى أمة موحدة ذات كيان واحد ، سوف نرى فى تفاصيل ذلك كله كيف كان رابح يحاول أن يطبق خبرته التى اكتسبها فى حروبه تحت لواء الزبير وأن يسير على نهج سياسته التى تركت فى بحر الغزال تاريخاً مجيداً لنشأة القومية وظهورها .

° ° °

سار رابح ، بعد معركة البلالى ، تحت لواء الزبير ينتقل معه من نصر إلى نصر ويستكمل تجاربه فى الحرب والسياسة خطوة بعد خطوة ، ويهز مع ربيبه قوائم مملكة دارفور تلك الثمرة الشهية التى فتح الطريق اليها باخضاع عرب الرزيقات أولا ، ثم باحتلال « شكا » ثانيا ، حتى نضجت الثمرة فى النهاية واستطاع الزبير بجيشه المظفر الذى كان رابح ، وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره ،

على رأس ضباطه وأقدرهم (١) احتلال الفاشر واخضاع دارفور نهائيا فى الثالث من نوفمبر عام ١٨٧٤ .

وانفتح الطريق إلى الغرب بعد سقوط دارفور ، وفتح الزبير لنفسه ولقائده الشاب ميدان قتال جديد فى هذا الاتجاه حتى تعفرت



فتوحات الزبير فى دارفور

أقدامهما بتراب « ودّاى » التى لم يقيض لهما فتحها فعادا إلى دارفور من جديد دون أن يعلم رابح أنه سوف يعود مرة أخرى إلى تلك البلاد ليكون له فيها شأنا آخر . .

(١) كتاب « حياة السلطان رابح » لمؤلفه جاستون دى جاريك طبعة باريس ١٩٠٢ ص ١٤ .

وبعودة الزبير من غزوة ودّاى هذه بدأت أيامه فى السودان تقترب سريعاً من نهايتها إذ لم يلبث أن دعى إلى القاهرة لمقابلة خديوى مصر ، وجاءت هذه الدعوة فى الواقع نتيجة للمؤامرات والدسائس التى نسج خيوطها اسماعيل أيوب حاكم السودان وقتئذ الذى أراد أن يتخلص من نفوذ الزبير فى السودان بابعاده عنه .

واستجاب الزبير إلى دعوة القاهرة بالرغم من معارضة رابح لها ومحاولة ثنيه عنها فكان هذا إيذاناً بانتهاء تلك الحقبة الهامة من حياة رابح التى عاشها تحت لواء الزبير إبنا له ، وقائداً لجيوشه وتلميذا يأخذ عنه دروس السياسة والحرب فيعيها فى ذاكرته ليوم قريب ..

رحل الزبير إذن عن السودان فبلغ القاهرة فى أوائل عام ١٨٧٥ حيث احتجزته الدسائس والمؤامرات فلم يقدر له أن يرى رابحاً بعد ذلك وإن كان لم يغفل يوما عن متابعة أخبار فتوحاته فى الغرب وكفاحه المجيد هناك ضد الاستعمار الفرنسى .

* * *

جاء فى مذكرات الزبير [١] عن حوادث عام ١٨٩٦ الفقرة التالية :

« . . . حدث فى هذا العام أن زارنى سراً وفى بهيم الليل

---

(١) راجع كتاب «الزبير باشا رجل السودان» للمؤلف صفحة ١٤٥-١٤٦ .

بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ فى بلادهم وبقوا معى إلى مابعد منتصف الليل بساعتين يحاولون إقناعى بأن أسعى لعقد اتفاق بينهم وبين رابح قائدى القديم الذى كان قد أبى التسليم لجيسى مع ابنى سليمان ومضى نحو الغرب بألف من الرجال المسلحين إلى أن وصل برنو ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوة جنوبى بحيرة تشاد إلى أن دخلت برنو هذه فى نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه جيوشهم ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لوائى من نصر إلى نصر فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة دامية. ولهذا التجأوا إلىّ طالبين أن أستعمل نفوذى لدى رابح لايقاف هذه الحرب ولأطلب منه الانسحاب من برنو وعرضوا علىّ فى مقابل هذا المبالغ الطائلة مع استعدادهم لتنفيذ كل ما أطلبه منهم.. غير أنى رفضت عروضهم هذه .. كنت قد نفضت يدى من أمور القتال وما يجرى بالسودان منذ مصرع ابنى سليمان وإن كنت قد أحسست لذكر رابح وأنباء الحروب والغزو بريح حزينة ناعمة تهب فى صدرى وتسوق لى مواكب الماضى وذكريات أعوام طويلة قضيتها بين رائحة البارود وهتاف النصر وأناشيده...»

ضد الاستعمار الانجليزى

« سليمان يواجه دنس الاستعمار — غوردون يتربص بتراث الزبير — روميللو جيسى — كفاح سليمان — عند سفح جبل مرعى — خديعة روميللو — راباح يغادر السودان — حقيقة الرجل الأبيض »

لم يكد الزبير يغادر السودان حتى بدأت منطقة بحر الغزال تشهد أحداثاً من لون جديد تهدف إلى القضاء على ذلك التراث الضخم الذى أقامه الزبير وخلفه وديعة فى يد ابنه سليمان وقائده راباح..

وكان سليمان الزبير، الذى خلف أباه فى حكم مديرية بحر الغزال، حدثاً لم يتجاوز بعد الواحدة والعشرين من عمره عندما بدأ يواجه مؤامرات غوردون الذى كان قد عين حاكماً عاماً للسودان خلفاً لاسماعيل أيوب والذى لم يأل جهداً منذ اليوم الأول لتعيينه هذا فى التمهيد للاستعمار الانجليزى وفى خلق الظروف والأحداث التى يستطيع فى زحمتها وتناقضها أن يمكن لقبضة الاستعمار من الالتفاف فى خسة ودناءة حول عنق ذلك الجزء من الوادى .

بدأ غوردون مؤامراته بالتطلع إلى القضاء على تلك القوة الحربية الضخمة التى أقامها الزبير فى منطقة بحر الغزال والتى كانت لا تزال تجتر فى نشوتها بما أحرزته من انتصارات باهرة نتائج الوثبة التى نقلها إليها حكم الزبير وزعامته الشعبية . وكان طبيعياً ألا يسكت غوردون ، وهو كما قدمنا طليعة النفوذ الانجليزى الذى كان قد بدأ يحكم مصر ويتطلع لحكم السودان ، عن هذه القوة أو يطمئن إلى وجودها . فان جيشا يبلغ تعداده الاثنى عشر ألفاً ويدين بالولاء لسليمان الزبير الذى ورث نفوذ أبيه فى تلك المنطقة كان يعتبر خطراً حقيقياً على أطماع الانجليز كما اعتبر من قبل خطراً بالغاً على أطماع الحكم التركى الفاسد الذى كان يمثله اسماعيل أيوب والذى من أجله أبعد الزبير عن السودان واحتجز فى القاهرة .

بدأ غوردون فى تنفيـــذ مؤامرته بتفريق جيش سليمان واخضاعه لقيادات متعددة جعل عليها أعوانه من الأتراك والخونة (١) تاركا سليمان بلا جيش أو رجال حاكما على مديرية بحر الغزال . وقابل سليمان كل هذا بالسكوت فقد كان أبوه محجوزاً فى القاهرة كرهينة وكانت أية معارضة من سليمان كفيلة على الأقل

---

(١) « تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » تأليف نعوم بك شقير ص : ٩٠ .

بأن تحرج مركز أبيه فى القاهرة إن لم تكلفه حياته كلها . ولكن غوردون ما كاد يطمئن بعد ذلك إلى تجريد سليمان من كل قوة حتى أقدم على الخطوة التالية فعزله وعين بدلا منه إدريس ابتر ، وهو أحد الدناقلة الذين اشتهروا بعدائهم للزبير ، حاكما على مديرية بحر الغزال .

عندئذ لم يكن هناك بد من أن يتحرك سليمان للدفاع عن نفسه وعن كيانه ضد تلك المؤامرة المحبوكة. وكان هذا هو كل مايهدف إليه غوردون فى النهاية . إذ ما كاد سليمان يهب بقواته طارداً إدريس أبتر من بحر الغزال ، ضارباً عرض الحائط بتعيين غوردون له ، حتى مضى الأخير يملأ الدنيا صياحاً بما أسماه ثورة سليمان على الحكم المصرى ، مما مكنه فى النهاية من أن يسير ضده حملة حربية بقيادة أفاق إيطالى يدعى روميلوجيسى للقضاء نهائياً على كل ما بقى للزبير من قوة ونفوذ فى تلك الأصقاع .

ولكن ما هو دور رابح فى كل هذه الأحداث .؟

إن دوره فى الواقع منذ أن رحل الزبير إلى القاهرة إلى أن استسلم سليمان لقوات جيسى ليبدو للمحقق التاريخى غامضاً إلى حد بعيد . فنحن لا نعرف شيئاً على وجه التحديد عن جهود رابح فى تلك الحقبة من تاريخه . والظاهر أن رابحاً ، بسفر الزبير إلى القاهرة ، قد فقد الكثير من نفوذه فى جيش سليمان ، بل لسنا

نستبعد أن يكون سليمان قد أقصى رابحاً عن القيادة وقرب إليه غيره من القواد فقد كان سليمان صغير السن قليل الخبرة ، وتفاصيل المعارك التى نشبت بينه وبين جيسى وإن كشفت عن كفاح مستبسل ضد الاستعمار الانجليزى ، إلا أنها لا تخلو من



سليمان الزبير يقود أسراه من رجال جيسى وأعوانه

أخطاء حربية ما كانت لتقع أو تكلف سليمان حياته فيما بعد لو كان قد استمع إلى رأى قائد كرابح تمرس بالحرب وحنكته المعارك

إلى حد بعيد واكتسب من الخبرة بألاعيب السياسة أبان اتصاله بالزبير مالم يتح لسليمان نفسه أن يكتسبه من أبيه .

* * *

ولقد حدث بعد عدد من المناوشات بين قوات سليمان وجيسى تأرجح فيها النصر بين المعسكرين دون الوصول إلى نتيجة حاسمة أن التقت القوتان عند سفح جبل مرعى حيث كان سليمان قد تحالف مع هارون والصباحى من أمراء دارفور فى ثورتهما ضد نفس الاستعمار ونفس فساد الحكم التركى .. وكانت قوات سليمان تختزن فى أعماقها حقداً هائلا على ذلك الرجل الذى جاء غازيا مستعمراً ، وكانوا يعلمون أنهم يقاتلون فى معركة حياة أو موت ، وكان سليمان نفسه عازماً على أن يقضى على عدوه فى تلك المعركة قضاء مبرما ، أما رابح فقد كان يقود فرقة من البازنجر وهم خيرة جنود سليمان الذين ظلوا مع قائدهم رابح على ولائهم لسليمان فى الوقت الذى كان قد انفض فيه كل من حوله من الأنصار .

استمرت المعركة طول اليوم عنيفة قاسية وابلى البازنجر فى ذلك اليوم بلاء مجيداً حتى اعتبرت تلك المعركة بحق من أقسى ما نشب بين سليمان وجيسى من معارك [1] ولم يلبث جيسى فى آخر

---

(١) كتاب «سبع سنوات فى السودان المصرى» لمؤلفه رومبلو جيسى ص ٢٣٠

النهار أن ارتد مدحورا عن مواقعه وقد بدأت تلوح فى الأفق بوادر انهزامه حتى أنه لم يفكر فى اليوم التالى فى أن يعاود الكرة ، بل أرسل يطلب إمدادات جديدة ويستميل من حوله قبائل الزيقات العربية التى لم تكن قد نسيت بعد ما أصابها من هزيمة على يد الزبير نفسه .

فى هذه الفترة الحاسمة التى كان من الممكن أن تشهد اندحاراً تاما لقوات جيسى يقضى على أطماع غوردون وصلت سليمان رسالة من أبيه فى القاهرة قلبت ميزان الأحداث وغيرت مصير سليمان ورابح تغييراً تاما .. فقد كان من الواضح أن ثورة سليمان قد أضرت بمركز الزبير الأدبى فى القاهرة ضرراً بليغا حتى لقد نبتت الشائعات بأن الزبير نفسه هو الذى حرض ابنه على الثورة انتقاماً لحجزه فى مصر مما أجبر الزبير ، وهو الذى كان يعيش كالأسير فى بلاط خديوى مصر على أن يكتب لابنه تلك الرسالة التى ينصحه فيها بالكف عن الحرب وبتسليم نفسه إلى غوردون مذكراً إياه بواجب الخضوع لحكومة الخديوى السنية [1] . !!

وعملت الرسالة عملها الذى أريد لها أن تعمله فقد انقسم بمجيئها معسكر سليمان إلى فريقين : فريق ينادى بالتسليم والاستجابة

---

(۱) كتاب « الزبير باشا رجل السودان » للمؤلف . ص ۱۳۱ .

لنصح الزبير وعلى رأسه سليمان نفسه ، وفريق آخر كان على رأسه رابح ينادى بالاستمرار فى القتال خاصة وان ذكرى انتصارهم القريبة على جيسى ما زالت حية فى أذهانهم .

وكان رابح بعيد الفكر ثاقب النظر فنهى سليمان عن التسليم لجيسى قائلا له (١) :

« لقد ناوأت جيسى فلا تتوقعن منه عفوا إذا صرت فى قبضته . أما أنا فيؤسفنى الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم فى السراء والضراء هذه السنين الطوال ولكنى لا أسلم نفسى لجيسى لأن الدناقلة محيطون به ، وهو مطواع لهم وأنت تعلم ما بيننا وبين الدناقلة من عداوة قديمة . وإنى لأشير عليك بالذهاب غربا وفتح بلدان جديدة . . . »

ولكن سليمان لم يستجب لهذا الرأى ، وانتصر فى النهاية رأى الفريق القائل بالتسليم فلم يجد رابح مناصا عن الانفصال بقواته والاتجاه بها نحو الجنوب . أما سليمان فانه لم تكد تشرق شمس ١٤ يوليو ١٨٧٩ حتى سلم نفسه لجيسى الذى لم يلبث بعد أن أمنه على نفسه أن قتله غدرا وغيلة هو وثمانية من أعمامه .

---

(١) كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » تأليف اسماعيل سرهنك باشا . الجزء الثانى ص ٣٣٥ .

وهكذا سقط سليمان وهو يدافع عن بلاده . . سقط كما يسقط الأبطال بعد أن أدى دوره فى مجاهدة الأفاقين الأجانب من أمثال غوردون وجيسى الذين كانوا يتصرفون لحساب دولهم وأطماعهم وإن حرصوا على الظهـــور بمظهر المنفذين لسياسة مصر وخديوى مصر . .

* * *

كان هذا هو أول احتكاك رابح بالاستعمار الأوروبى .

ولقد تلقى رابح من هذا الاحتكاك الدرس الأخير فى سلسلة الدروس التى تلقاها فوق أرض الجنوب . ولقد قدر له بعد ذلك أن يكافح الاستعمار الفرنسى لفترة من الزمن طالت حتى بلغت عشر سنوات كاملة فلم ينس غدر المستعمرين وخستهم فى القتال كلما ذكر أخاه سليمان وأعمامه الذين شاركهم سنين السراء والضراء وكيف قتلهم جيسى بعد أن استسلموا له وأصبحوا أسرى معزولين عن كل سلاح . ولعل رابحا لم يكن فى حاجة إلى أكثر من هذا لكى تمتلىء نفسه بالقسوة والحقد على هؤلاء الأجانب ، وكأنى به بعد ذلك وهو يقتل فى غير شفقة أو رحمة كل من وقع فى يده من رسل الاستعمار الفرنسى ورجاله أمثال كرامبل ، وبيهاجل ، وبريتونييه ، وفورولامى ممن سيأتى ذكرهم بالتفصيل ،

إنما ينتقم لسليمان وأعمامه ممن اغتالهم الاستعمار الانجليزى فى خسة وغدر . .

وثمة شيء آخر . .

لقد كشفت تلك المعارك الطويلة التى خاضها رابح إلى جوار سليمان ضد جيسى ، كشفت لذلك الرجل الذى نشأ فى أصقاع الجنوب بين قبائل تعيش على حال من البداوة الأولى عن حقيقة الرجل الأبيض ، وعن حقيقة الاستعمار ومؤامراته ، وكيف يتسلل فى ثوب الحمل ليقبض على عنق الشعوب بمخالب الذئاب. ولقد كان رابح حقاً فى حاجة لأن يعرف كل هذا حتى لا تنطلى عليه خدعة أولئك المستكشفين الفرنسيين الذين انطلقوا فى أواخر القرن التاسع عشر يمهدون باسم العلم ، وباسم المدنية لذلك الغزو البربرى الذى منيت به أفريقيا أو القارة السوداء كما كانوا يسمونها وكما سيطالع القارىء فى الفصول القادمة .

رابح ... والحركة المهدية ...

« رابح يتجه نحو الجنوب ـ شهرة رابح تبلغ المهدى ـ دعوة المهدى لرابح ـ وفاة المهدى ـ رابح وعبد الله التعايشى ـ السيد السنوسى ـ رابح يصاهر السنوسى »

اتجه رابح ومعه حوالى الألف من رجال البازنجر المسلحين بنحو أربعمائة بندقية نحو الجنوب بعد انفصاله عن سليمان الذى فصلنا ظروفه فى الفصل السابق . وهناك بين القبائل التى تعيش فى تلك المنطقة بدأ رابح حياة جديدة لحسابه الخاص إن صح هذا التعبير . . فقائده الأول ، الزبير ، أسير فى القاهرة . وسليمان ، صديقه وأخوه ، قد راح ضحية غدر جيسى ونكثه بالعهود . وبلاده التى نشأ فيها وأحبها قد أجلاه عنها مستعمر غاصب . وذلك الجيش الكبير الذى تولى قيادته حقبة طويلة من الزمن قد تناقص وانكمش تحت ضربات الأحداث فلم تبق منه غير تلك الفرقة المخلصة الوفية من رجال البازنجر .

كانت كل الأسباب إذن قد قطعت بين رابح وماضيه نهائيا . .

وألقت به إلى هذه الحياة الجديدة وكأنما قد طوت صفحة لتنشر أخرى جديدة فى سطورها ، مبهمة كذلك المجهول الذى يتربص به فى تلك المناطق التى تقطنها قبائل وثنية معادية لم تلمسها بعد يد الدين أو التحضر اللذين عرفهما رابح فى حوض بحر الغزال .

ولكن رابحا لم يستسلم مع ذلك لوحشة المجهول الذى ألقت به الظروف بين أحضانه ، بل نشط إلى مزاولة حياة الحرب والقتال التى تعيش فى دمه ، فمضى يخضع القبائل ، ويغزو البلاد الواقعة على حدود دارفور الغربية ناشرا خلفه الدين الاسلامى ، معليا لواء زعامته الناشئة المتوثبة حتى أقبل عام ١٨٨٥ فاذا اسمه قد بدأ يدوى فى تلك الأصقاع وينتشر كموجات من الماء فى بحيرة ساكنة حتى تلقفته فى النهاية أذنا محمد احمد المهدى الذى كانت قواته تدك فى ذلك الحين أسوار الخرطوم وترسل فى سماء السودان أول صيحة للتحرر الوطنى ضد الاستعمار الانجليزى والفساد التركى . .

بلغت شهرة رابح إذن إلى آذان المهدى فتاق إلى أن يضمه إلى صفوفه ليكسب لدعوته قائدا لا يجيد فنون القتال إجادة تامة فحسب ، وإنما بينه هو الآخر وبين الاستعمار الانجليزى والفساد التركى ثأر قديم فأرسل إليه رسولين الأول يسمى زين العابدين والثانى يدعى جبار حاملين

اليه دعوته للانضمام اليه . والواقع أن حركة المهدى لم تكن حركة دينية متعصبة كما رماها بذلك الاستعمار الانجليزى ليؤلب ضدها كل العناصر وكما أراد لنا دائما أن نفهمها . وبالرغم من أن تتبع هذه الحركة والعوامل التى أدت إلى نشأتها مما يخرج عن نطاق كتابنا هذا إلا أننا لانملك هنا إلا الوقوف أمام دعوة المهدى لرابح ، ودعوته فى نفس الوقت للسيد محمد المهدى السنوسى ليكون خليفته الثالث وهو الذى كان يبسط نفوذه فى ذلك الحين على طرابلس ووداى ومناطق السودان الغربية . هاتان الدعوتان تظهران بجلاء رغبة المهدى فى أن يجمع كل الصفوف ، وأن يوحد كل الجهود نحو هدف واحد هو تطهير السودان من كل غاصب أو دخيل مستعينا فى سبيل ذلك بكل القوى والامكانيات مما يخرج بدعوته عن نطاق الذاتية المتعصبة إلى نطاق القومية الواسعة التى تهدف إلى خلق وطن حر موحد .

ولقد رحب رابح بالانضمام إلى المهدى . . ربما لأنه وجد فيه بديلا عن قائده الأول ، الزبير ، الذى لم تلبث المؤامرات ان نفته إلى جبل طارق لتبعد به عن نطاق حوادث الحركة المهدية . . بديلا يستطيع أن يعكس ما كانت تغلى به البلاد فى ذلك الحين من عوامل السخط والثورة . . أو ربما رحب بذلك الانضمام ليغسل بدم غوردون ذكرى مقتل سليمان . على أية حال فقد كان رابح

سريعاً إلى الترحيب بتلك الدعوة وإلى تلبيتها فما كاد يصل اليه رسولا المهدى حتى بدأ يتحرك بقواته للانضمام إليه غير أنه ما كاد يبلغ حدود دارفور الغربية حتى بلغه موت المهدى في ٢٢ يوليو ١٨٨٥ وتولى عبد الله التعايشى الزعامة من بعده . عندئذ كان على رابح أن يقف قليلا ، وأن يراجع موقفه من الحركة المهدية بعد هذا التغيير الذى قفز بعبد الله التعايشى إلى منصب الزعامة الأول .

وكان بين رابح وعبد الله التعايشى هذا تاريخ قديم .

فقد حدث أثناء حرب الزبير مع عرب الرزيقات أن وقع فى الأسر فقيه من فقهاء التعايشة يدعى عبد الله ود محمد آدم تورشين ، وكان الرزيقات قد استخدموه ليقرأ لهم الأسماء فى خلوته لعلها تقبض على سلاح الزبير فلا يطلق ناره فى ساحة الحرب وتعهدوا له فى مقابل هذا ببقرة حلوب فلما وقع هذا الفتى فى الأسر لم يتردد الزبير فى الأمر باعدامه .

وكان مع الزبير فى ذلك الوقت اثنا عشر عالماً من علماء الدين وقد جعلهم يقسمون له على القرآن الشريف بأنهم إذا رأوا منه فى أحكامه اعوجاجا عن الشرع ينبهوه إليه . فلما أمر باعدام ذلك الرجل ، الذى عرف فيما بعد باسم عبدالله التعايشى ، اعترض هؤلاء العلماء بحجة أن الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب فضلا عن أن حسن السياسة ينكر على الزبير إعدام رجل

يعتقد الناس فى صلاحه وطيبته . غير أن رابحاً لم يكن يرى هذا الرأى فعارض فى الابقاء على حياة عبدالله هذا بحجة أن اعتقاد العامة فيه واتجاره هو بالدين على هذا النحو قد يثير من الفتن ما يكشف مؤخرة قوات الزبير التى كانت منهمكة فى ذلك الوقت فى قتال مرير مع عرب الرزيقات .

ولكن الزبير فضل فى النهاية أن يستجيب لرأى علمائه فتراجع عن قتل أسيره الذى استطاع بعد ذلك ، عندما اشتهر أمر محمد احمد المهدى فى جزيرة « أبا » أن يتصل به وأن يتقرب إليه حتى فاز بثقته ، فلما دان للمهدى حكم السودان عينه خليفة له إلى أن مات فبايع الناس عبدالله التعايشى هذا اماماً وحاكما من بعده[1] .

* * *

توقف رابح إذن عند حدود دارفور عندما بلغه نبأ موت المهدى وتولى عبدالله التعايشى الزعامة من بعده ..وكان عليه أن يفكر مرتين قبل أن يقدم نفسه إلى الرجل الذى حرض الزبير يوما على قتله والذى نادى بوضع حد لحياته ذات يوم منذ أكثر من عشر سنوات .

ولم يطل التفكير برابح إذ كان من الطبيعى عندئذ وبعد أن

---

(١) كتاب « تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل » تأليف الأستاذ الياس الأيوبى الجزء الثانى ص ٤٩ .

سارت الأمور على ذلك النحو أن يرفض الانضمام إلى الحركة المهدية خوفاً من انتقام عبدالله التعايشى فقرر الرجوع بقواته إلى اقليمه السابق ليعاود الغزو والفتح هناك ويضيف إلى ذلك اشتغاله بتجارة العاج والصمغ وريش النعام .

ونحن لا نستطيع هنا أن نجد أى اعتراض على قرار رابح هذا بعدم الانضمام إلى الحركة المهدية إذ أن عبد الله التعايشى لم يلبث أن بدأ عهداً من الارهاب فيمن حوله من القادة والاتباع فكان لا يتورع عن أن يلق إلى السجن أو الموت كل من يخشى منه على مركزه أو زعامته وقد كان من المحقق أن يلق رابح على يدى التعايشى مصيراً كهذا . .

* * *

فى هذه الفترة من حياته اتصل تاريخ رابح بزعيم دينى آخر هو السيد محمد المهدى السنوسى اتصالا قدر له أن يلعب دوراً هاماً فى حياة رابح وفى كفاحه ضد الاستعمار الفرنسى بعد ذلك .

والسيد محمد المهدى السنوسى هذا هو ابن محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية التى يدين بها معظم القبائل التى تقطن الصحراء الليبية . وقد قام بعد وفاة أبيه بنشر طريقته ومعه أخوه السيد محمد الشريف السنوسى جاعلا من واحة جغبوب مركزاً له . وقد ازداد عدد المريدين للسنوسية على عهد محمد المهدى هذا

أضعافا كثيرة وكان من بين من اتبعوه ملك وداى وجميع أهل مملكته وكان هذا الملك يجمع له الهدايا كل عام ويرسلها له مع رسل مخصوصين ويشاوره فى جميع شئونه حتى أنه لم يكن يقطع أمراً دون مشورته [1].

ولمحمد المهدى هذا زوايا كثيرة متفرقة فى الحجاز والغرب والبادية وكان فى كل زاوية خليفة من قبله يدير شئونها ويبايع الناس فيها بدلا عنه ويعلم فيها أولادهم القرآن ومبادىء العلوم. وكان هذا الخليفة ينشأ له زرع بمساعدة السالكين عنه ويقتنى الماشية فيصرف من ذلك على الزاوية وما زاد يرسله إلى شيخه السنوسى. وقد كثرت الزوايا بالبادية حتى صار دخلها عظيما وحتى صار محمد المهدى أشبه بملك يجبى إليه الخراج. وكان له مقام عند أهل طريقته أشبه بمقام الملوك. وكان أهل البادية لا يعرفون حاكما غيره ولا يخضعون للحكام إلا بواسطته بل كانوا يعتقدون أنه هو المهدى المنتظر وإن كان هو لم يعلن هذا أو يرده.

ولقد أرادت الدولة العلية إبان سيطرتها على طرابلس استدعاءه إلى الآستانة فلما شعر بذلك رحل من جغبوب ونزل بالكفرة عن طريق ودّاى وبنى له زاوية هناك وجعل منها مقـــراً له حتى آخر أيامه.

---

(١) « دائرة المعارف البستانية » المجلد العاشر ص ١٤٦.

وفى الكفرة سمع السيد محمد المهدى السنوسى باخبار رابح وفتوحاته فكان طبيعيا أن يجد فيه حليفا قويا فاتصل به عن طريق رجاله ولم يلبث هذا التحالف أن توج بزواج فتح الله نجل رابح باحدى كريمات السيد السنوسى وتدعى خديجة فزادت هذه المصاهرة فى توثيق الصلات والاواصر بينهما .

ولقد كان السيد السنوسى شديد الكراهية للاجانب لا يسمح لهم أن يطأوا زاويته ، بل لا ينشطهم حتى على التجول فى الصحراء فى أرض زواياه ولايحب أن يتدخل أحد من الأجانب فى شئونه . وبمقتضى هذه السياسة الوطنية كان على رابح ، بالاتفاق مع السنوسى القيام بمهمة حماية تلك البلاد من تسرب بعثات الفرنسيين اليها . وعلى هذا الأساس اقتنص رابح فى عام ١٨٩١ بعثة بول كرامبل عند بلدة « الكوتى » وقتل رئيسها فكان هذا بدء اصطدام رابح بالفرنسيين ، وهو الاصطدام الذى حمل رابح بعد ذلك عبئه على كتفيه طوال عشر سنوات كاملة لم ينكص أو يتراجع وإن كان السنوسى ، وكأنما قد خاف على نفسه مغبة هذا الصدام ، قد آثر أن ينفصل من مقتل كرامبل وأن يهادن الفرنسيين ويتبادل معهم البعثات تاركا رابحاً وحده ، حليفه وصهره ، يواجه الموجات المتتالية من حملات الفرنسيين كما سنرى فى الفصول القادمة .

امبراطورية رابح

رابع ... وطلائع الاستعمار الفرنسى

« الأرض البكر ـ ثلاث قوى ـ لجنة إفريقيا الفرنسية ـ بعثة بول كرامبل ـ موقف السنوسى »

شهد العالم فى الفترة الواقعة بين أعوام ١٨٧٠ ، ١٩١٤ مرحلة تاريخية هامة نمت فيها الاحتكارات الرأسمالية نموا عالميا فى كل من فرنسا وانجلترا والمانيا نتيجة لنمو الصناعة وتقدمها فى تلك البلاد مع تركيز الأموال وأعمال البنوك فى أيدى عدد من المؤسسات الضخمة . وصاحب هذا النمو نشأة الاستعمار والتسابق الجنونى إلى تقسيم العالم بين هذه الدول إلى مناطق نفوذ واسعة يمكن فيها تصريف منتجات الصناعة الأوروبية والحصول منها على المواد الخام والايدى العاملة بأسعار زهيدة تزيد من أرباح الأموال المستغلة فى هذه المستعمرات .

وكانت افريقيا فى ذلك الوقت بما يحوطها من غموض هى الأرض البكر التى يتطلع اليها الممولون فى كافة دول أوروبا، والمجال الطبيعى لتوسع الرأسمال الأوروبى فى بحثه عن أسواق جديدة وكانت فرنسا من أنشط الدول فى ارتياد مناطق تلك القارة وضم

أجزاء منها إلى امبراطوريتها حتى لم تكد أواخر القرن التاسع عشر تقبل حتى كانت هذه الامبراطورية تضم الجزائر، ومدغشقر وداهومى، وتومبكتو، والسنغال وغرب أفريقيا حتى فاشودة ومنابع النيل وحتى كان تعداد سكانها يبلغ حوالى الخمسين مليونا [1]

وكانت طريقة فرنسا فى احتلال تلك الاجزاء المختلفة من امبراطوريتها هى ارسال البعوث العلمية والتجارية التى تغزو البلاد تحت ستار التجارة والعلم وتعمل فى الوقت نفسه على عقد معاهدات واتفاقيات مع ملوكها ورؤسائها يخضعون بمقتضاها لنفوذ فرنسا وحمايتها. ولكن الطريق مع ذلك لم يكن سهلا دائما أمام تلك البعوث فقد التقى بعضها فى أغلب المناطق بوطنيين أشداء وبملوك وسلاطين تصدوا لمقاومتها وردها عن أبواب بلادهم فى سلسلة طويلة من المعارك الدامية [2].

ولقـــد كانت السودان الوسطى من أعصى تلك المناطق على الاستعمار الفرنسى .. فقد كان للسنوسى نفوذ واسع بتلك الأصقاع، وكان رابح قد بدأ يكوّن امبراطوريته الواسعة ويجمع

---

(١) كتاب « نشأة الاستعمار الفرنسى » تأليف سيريل كلايدون (طبعة لورنس وويشارت) ص ٤٠ .

(٢) راجع الفصل الأخير فى هذا الكتاب عن « الاستعمار الفرنسى فى شمال وغرب أفريقيا » .

حول رايته القبائل المتناثرة حول بحيرة تشاد وشواطىء نهر شارى , كما كان هناك الباجورميون وهم أفراد قبيلة واسعة النفوذ تقطن شرق نهر شارى وتبسط سلطانها عليه . وبذا كان على البعثات الفرنسيه الغازية أن تصطدم بكل تلك القوى وأن تحارب كل واحدة منها بالأسلوب الذى يضمن لها فى النهاية تحقيق أهدافها الاستعمارية .

ولقد استطاعت فرنسا أن تستميل السنوسى إلى صفها دون قتال . وأن تعقد معاهدة مع السلطان عبد الرحمن جوارنج سلطان الباجورميين الذى كان يخاف على نفسه من قوة رابح النامية فكان طبيعيا أن يرحب بتلك المعاهدة التى تضمن له حماية فرنسا ضد ذلك العدو الناشىء . وبذلك استطاعت فرنسا تدريجيا أن تتخلص من قوتين سياسيتين فلم يبق أمامها من ند عنيد سوى رابح الذى أبى أن يفرط فى البلاد التى اتخذها وطنا ثانيا بعد أن غادر وطنه الأول ، وأن يتركها لتسقط فريسة فى أيدى المستعمرين الطغاة الذين كان يعرف عنهم وعن أساليبهم أكثر مما يعرف السنوسى أو السلطان جورانج . .

وقف رابح إذن وحده ضده الاستعمار الفرنسى ، وبالرغم من الخيانات التى كانت تعيش حوله وتحيط به ، والممثلة فى تحالف السنوسى والباجورميون مع فرنسا ، فقد استطاع أن يصمد

فى كفاحه وقتاً طويلا ، وأن يكبد الفرنسيين من الخسائر فى القوات والأرواح ما ألجأهم فى النهاية إلى السعى لدى الزبير فى القاهرة كى يتوسط لهم عند قائده القديم رابح بقصد إيقاف تلك الحرب كما قدمنا .

ooo

والآن فلنبدأ القصة من أولها . .

فى حوالى نهاية عام ١٨٨٩ اجتمع فى باريس عدد من الأشخاص يمثلون رجال الصناعة والمال فى فرنسا ، وذلك لتكوين شركة تتولى تمويل عمليات الغزو والاستكشاف فى مناطق أفريقيا الوسطى عرفت بعد ذلك باسم « لجنة أفريقيا الفرنسية » وجاء فى برنامجها ماياتى :

« نحن الآن فى اجتماع فريد فى التاريخ إلا وهو تقسيمه قارة لايعرفها إلا عدد بسيط من دول أوروبا المتمدينة .

ولفرنسا فى هذه التقسمة الجزء الأكبر والنصيب الأوفى لتنازلها وموافقتها لباقى الدول على التمتع بحقوقها فى أفريقيا الشرقية والمجهودات التى بذلتها لتنمية ممتلكاتها فى الجزائر وتونس والسنغال والكونغو . ولقد جاء فى الإتفاق المبرم بين فرنسا وانجلترا حقنا فى ربط مستعمراتنا فى السنغال والجزائر عبر الصحراء ، كما يعطينا نفس الإتفاق الحق فى شمال بحيرة تشاد التى

نزمع الوصول اليها من الكونغو عن طريق باجورمى . ويجب على نفوذنا أن ينتشر أولا فى هذا البلد الأخير وأن نعمل على ربط الكونغو الفرنسى والسنغال والجزائر وتونس حول السودان .

ويجب علينا لتحقيق هذه الأهداف هو القيام بعمل إيجابى مباشر لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ أن نأخذ على عاتقنا مهمة تمويل حملة نرى أن تسند قيادتها إلى پول كرامبل بقصد استكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد وتكون من مهمتها عقد المعاهدات مع رؤساء تلك البلاد ثم العودة عن طريق الشمال إن أمكن ذلك . على أن تكون هذه الحملة مقدمة لحملات أخرى نقوم بتمويلها وبذلك يمكننا خدمة النفوذ الفرنسى دون أن نكبد الحكومة أية مصاريف أو نعرضها لتحمل أية مسئولية .

ونحن نعتبر مثل هذه الحملات ضرورية فى وقتنا الحاضر إذ أن للمحتل الأول الحق فى السيطرة على أفريقيا الوسطى . ومن ثم نستطيع تنمية تجارتنا فى هذه المناطق بعد أن تقع تحت النفوذ الفرنسى كما هو متبع الآن فى البلاد الواقعة فى نيجيريا .

لذلك كله قررنا تأليف شركة تحمل اسم لجنة أفريقيا الفرنسية يكون هدفها انتشار النفوذ الفرنسى والتجارة بكافة الوسائل فى أفريقيا الغربية والوسطى والشمالية . وقصد هذه الشركة تنفيذ

فكرة وطنية حرة لادخل لها بالأحزاب السياسية وخارجة عن نطاق الأعمال الحكومية ».[1]

هذه هى الأهداف التى تضمنها برنامج لجنة أفريقيا الفرنسية التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الإستعمار الفرنسى والتى دفعت بيول كرامبل إلى تلك المناطق كطليعة لعدد كبير من البعثات الفرنسية التى قدر لها أن تأتى من بعده .

ولقد ولد بول كرامبل هذا بنانسى بفرنسا عام ١٨٦٤ [٢] ثم أرسلته وزارة المعارف الفرنسية فى بعثة إلى أفريقيا الوسطى . وفى عامى ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ عاد بمفرده إلى تلك البلاد فاستكشف شمال الكونغو الفرنسى وحدد أراضى المستعمرات الفرنسية فى جنوب الكمرون الألمانى كما استكشف منابع نهر الا قندو الكبير وجزءاً من مجراه غير أنه لم يلبث أن أصيب بالحمى فقفل راجعاً إلى فرنسا . وفى ١٨٩٠ وكان قد شفى تماما واستعاد قوته رشحته رحلاته السابقة إلى أفريقيا ومعرفته التامة بتلك البلاد لأن يكون على رأس البعثة الأولى التى قررت لجنة أفريقيا الفرنسية إيفادها

---

(١) كتاب « غزو بحيرة تشاد عام ١٨٩١ وحلفاؤنا الأفريقيون ١٨٩٤ » تأليف بول كرامبل من ص ٢٥٩ إلى ص ٢٦٣ .

(٢) دائرة المعارف الفرنسية لقاموس لاروس الجديد العالمى المصور ص ١٦٠ المجلد رقم ٤٣ .

« لاستكشاف المنطقة الواقعة بين الكونغو وبحيرة تشاد وللقيام بعقد معاهدات مع رؤساء تلك البلاد ثم العودة عن طريق الشمال ان أمكن ذلك » طبقاً لما جاء فى نص برنامج تلك اللجنة كما قدمناه .

ولكن كرامبل لم يقدر له أبداً العودة عن طريق الشمال أو عن أى طريق آخر فقد التقى به رابح فى جوار بلدة « الكوتى »...

• • •

وصل كرامبل إلى الكونغو الفرنسى ، ومن ثم استطاع بسهولة مبتدئاً من مدينة « بنجوى » على نهر الا وبنجى أن يجتاز بحملته منابع نهر شارى . فلما بدأ بعد ذلك يخترق تلك المناطق متجهاً شمالا نحو ضفاف بحيرة تشاد بدأت أرصاد رابح وعيونه تتنبه لهذا الوافد الغريب .

وكان رابح فى ذلك الوقت ، وكما قدمنا ، تربطه بالسنوسى روابط التحالف والمصاهرة وكانت المناطق الواقعة جنوب ودّاى وإلى الغرب من مقاطعة دارفور تدخل فى نطاق سلطانه الحربى وإن كانت تخضع دينيا لزعامة السنوسى ومذهبه . وكانت حمايتها وحكمها موكولين إلى رابح فما كاد يعلم بتقدم كرامبل وقواته فى تلك الأنحاء حتى نشط إلى مطاردته إلى أن التقى به بالقرب من بلدة « الكوتى » .

كانت قوات كرامبل تتألف غالبيتها من حوالى الستمائة رجل

من السنغاليين المسلحين بنحو ثلاثمائة بندقية فى حالة جيدة موديل عام ١٨٤٢ [1] ومن بعض الحمالين والأتباع ممن انضموا اليه خلال رحلته من الكونغو إلى تلك المنطقة ، التى لم تشهد من قبل مثل ذلك العدد من الأجانب الذين كان يبدو تسليحهم على قدر كبير من التمام .

التقى رابح اذن بهذه القوات ، وبالرغم من أن أحدا من المؤرخين لم يذكر بعد ذلك شيئا عن نشوب معركة بينه وبينها إلا أنه من الثابت أن رابحاً قد استقبل هذه القوات بوصفها قوات غازية معادية . أما كيف قتل كرامبل وأباد حملته نهائيا واستولى على عدته من البنادق والسلاح فقد بقى حتى اليوم لغزا لا يلم بتفاصيله أحد .

فدائرة المعارف الفرنسية تقول إن كرامبل « قد وقع فى فخ نصبه له السنوسى زعيم المسلمين وذلك فى بلدة «الكوتى» بعد موافقة رابح » [2] بينما يذكر اميل جنتيل فى كتابه « سقوط امبراطورية رابح » إن كرامبل قد لقى حتفه « بناء على تحريض من رابح أو اوامر من السنوسى نفسه ثم سلمت أسلحته بعد ذلك إلى رابح

---

(١) كتاب « سقوط امبراطورية رابح » لمؤلفه اميل جنتيل ص ٢٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الفرنسية لقاموس لاروس الجديد العالمى المصور ص ١٦٠ المجلد رقم ٤٣ الطبعة الجديدة .

وكانت تبلغ على وجه التقريب ثلاثمائه بندقية فى حالة جيدة موديل ١٨٤٢ » ...

ولقد حرص السنوسى بعد ذلك على التنصل من تهمة قتل كرامبل أو الاشتراك فيها كما كان حريصاً على أن يثبت ذلك للسلطات الفرنسية بإقامة علائق ودية معها بعد ذلك [١] ويبدو أن تلك السلطات لم تكن على استعداد لأن تناصب السنوسى العداء فى الوقت الذى كان عليها فيه أن تكتل كل جهودها ضد رابح الذى كان قد بدأ يوسع نفوذه ويوطد اقدامه فى تلك البقاع كقوة حربية خطيرة لذا فقد آثرت التظاهر بتصديق براءة السنوسى من دم كرامبل ملقية المسئولية كاملة على عاتق رابح الذى اعتبر بحق العدو الأول لخطط فرنسا فى تلك المنطقة البكر .

قتل كرامبل إذن ، وبمقتله تلقت مشروعات « لجنة أفريقيا الفرنسية » الصدمة الأولى على يد رابح . ونحن وإن كنا لانستطيع أن نزيد إلى تفاصيل ذلك الحادث شيئا جديداً لقلة ما تركه المؤرخون عنه الا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نهمل بيان ذلك الأثر الضخم الذى خلفه فى حياة رابح . فبالإضافة إلى أن مقتل كرامبل هذا قد أتاح للأول الاستيلاء على اسلحته مما ساعده

---

(٣) كتاب « حياة السلطان رابح » لمؤلفه جاستون دى جاريك طبعه باريس ١٩٠٢ ص ٩٦ .

إلى حد كبير على تقوية جيشه وإقامة قواعد امبراطوريته فيما بعد ، فانه قد حدد أيضاً مركزه نهائيا بالنسبة للغزو الفرنسى أولا ، وبالنسبة لما كان يربطه بالسنوسى من تحالف ثانيا . فقد كان تنصل السنوسى من ذلك العمل الذى إن لم يكن قد شارك فيه فهو على الأقل قد رحب به ، ثم انضمامه إلى الفرنسيين بعد ذلك إيذانا لا بانفصام عرى هذا التحالف فحسب وإنما بداية لعداوة مستترة بين رابح والسنوسى بعد ذلك سوف نلمس آثارها فيما جرى عقب مقتل كرامبل من وقائع وأحداث .

امبراطورية رابح ...

« رابح يؤدب مملكة وداى ـ نحو الغرب ـ
نهر شارى ـ حصار مانهاد وهزيمة
الباجورميين ـ اكتساح برنو ومعركة كوكا ـ
« رابح يحكم امبراطوريته ـ رابح الزعيم القوى »

قلنا إن مقتل كرامبل كان حادثا بعيد الأثر فى سير الأحداث بالنسبة لرابح بعد ذلك فقد زوده بثلاثمائة بندقية لم يكن حصوله عليها فى ظروف كظروفه تلك شيئا قليل الأهمية ، كما فتح أمامه آفاقاً بعيدة وملأ نفسه بالثقة والعزم فبدأ ، بعد أن كانت كل معاركه من قبل لا تعدو أن تكون غزوات متفرقة لا يربطها هدف واحد ، يفكر فى أن تأخذ حروبه شكلا جديدا وانتصاراته هدفا أوسع وأعمق مما كانت عليه . .

بدأ رابح لأول مرة يفكر فى أن تكون له مملكة واسعة يستقر فى ربوعها ويتحكم فى مصائرها ويجمع حول رايتها القوى المناهضة للغزو الفرنسى الجديد الذى جاء كرامبل بطلائعه . وكان طبيعياً أن يدرك رابح بفطرته وخبرته التى اكتسبها من نشأته تحت زعامة الزبير السياسية أنه ما لم يوحد تلك القبائل المتفرقة فى حوض

نهر شارى وعلى ضفاف بحيرة تشاد والتى كان معظمها من القبائل الوثنية فى أمة واحدة فلن يقيض لهذه المناطق أبدا الوقوف فى وجه ذلك الغزو الفرنسى المنتظر ، وأن بقاءها على هذا النحو من التفرق كفيل بأن يجعلها تتساقط الواحدة بعد الأخرى كأوراق الخريف فى أيدى أصحاب الأموال الفرنسيين . .

ولكن كان على رابح قبل أن يبدأ خطته البعيدة تلك أن يعلم السنوسى حليفه السابق درسا لاينسى جزاء انحيازه للفرنسيين عقب مقتل كرامبل . ولما كان عسيرا على رابح أن يهاجم السنوسى نفسه فى واحة الكفرة فقد عول على القاء درسه هذا على ملك ودّاى الذى كان يدعى سلاّمات والذى كان مركزه فى الواقع بالنسبة للسنوسى مركز التابع والخادم .

لذا فما كاد رابح يتمون بالمؤن والذخيرة ويعيد تنظيم قواته حتى اتجه شمالا لتأديب مملكة ودّاى التى يعرفها من قبل منذ أن خاض على حدودها بعض المعارك تحت لواء الزبير كما سبق أن ذكرنا . ولقد استطاع رابح هذه المرة أن يوقع بعض الهزائم بقوات ودّاى وهى وإن لم تكن هزائم حاسمة إلا أنها كانت كافية فعلا لإشعار السنوسى بقوته وخطره وبأنه قد خسر بفقده حليفاً قويا يستطيع لو أراد أن يقض مضجعه .

ولكن رابحاً لم يكن يريد أن تضيع قواته التى يعدها لهدفه

الكبير الآخر فى حرب طويلة مع ودّاى لن تنتهى مع ذلك إلى شئ واضح محدد فلم يلبث أن تعجل رفع حصاره عن تلك المناطق والاتجاه نحو الغرب حتى شواطىء نهر شارى .

ولقد لعب نهر شارى هـــذا دوراً كبيراً سواء فى إقامة إمبراطورية رابح أو فى انهيارها فى النهاية ، وذلك بتسهيله لتسلل القوات الفرنسية إلى مناطق السودان الوسطى . فقد استطاعت هذه القوات أن تنقل إلى صفحته عددا من البواخر النهرية ساعدت فى صورة واضحة على سرعة التنقل بتلك المناطق وعلى التمهيد لنقل مؤونتها وعتادها على نحو افادها أعظم الفائدة فى المعارك التى خاضتها ضد رابح .

ونهر شارى نهر كبير يقع فى جوف أفريقيا الوسطى وينبع من المرتفات الواقعة بين بحيرة تشاد والنيل والكونغو ثم يجرى ببطء فى اتجاه الجنوب لمسافة قصيرة يغير بعدها اتجاهه إلى الشمال الغربى حول سهل كبير ليصب فى النهاية فى جنوب بحيرة تشاد بدلتا واسعة تعترضها الصخور ، وهو صالح للملاحة فى أكثر أجزائه وإن اعترضت مجراه بين الحين والآخر عدة جزر وسدود من الرمال حيث تكثر التماسيح وفرسان النهر كثرة ملحوظة .

وكان يقطن شواطىء هذا النهر عندما بلغها رابح عدد من قبائل الوثنيين مثل قبائل الملتوس Miltous والبواس Bouas

والساراس Saras والاليتونز Alitons والتوموكس Toroocks وهى قبائل تختلف فى الجنس والعادات والتقاليد وإن اشتركت جميعها فى أنها تعيش على نحو من الهمجية والبدائية . فأفراد التوموكس مثلا نحاف الجسم يقطنون أكواخا تدل على البؤس وقد وصفتها دائرة المعارف الفرنسية [1] بأنها أكواخ مغطاة بالحشائش والنبات الجاف يرى الانسان بداخلها جرارا مدفونة فى الأرض حتى نصفها الأعلى وقرعة كبيرة لحفظ الماء وأخرى للدقيق وسلال كثيرة وفراش يتكوّن من قطعتين من الخشب متوازيتين وقد ثبتت أطرافها على أربعة أوتاد ، أما الزراعة هناك فمتأخرة جداً وتقع أعمال الحقول على عاتق النساء من أفراد القبيلة ، بعكس قبيلة الساراس التى كان سكانها يعتبرون من أجمل سكان تلك المنطقة بالرغم من أنهم كانوا يخلعون أحد قواطع أسنانهم العليا ويساوون باقى الصف بالمبرد وكانوا يعنون بالزراعة إلى حد بعيد إلى جوار إجادتهم للقتال وحبهم للحرب والنزال . وكان لباس تلك القبائل غاية فى البساطة يتكوّن من قطعة من جلد الماعز يشدونها حول وسطهم لتستر أجسادهم من الخلف فقط وكان مستواهم العقلى والاجتماعى غاية فى التدهور والبساطة .

ولم تقو هذه القبائل بطبيعة الحال على الصمود أمام قوات رابح

---

(١) دائرة المعارف لقاموس لاروس الجديد العالمى المصور صفحة ١٠٦٨ المجلد ٤٢ الطبعة الجديدة .

فاستسلمت له بغير جهد كبير على شدة بأسهم وبراعتهم فى القتال .
وكان طبيعياً أن ينشر رابح بينهم بعد ذلك الدين الإسلامى ويشيع فى ربوعهم نوعاً من العدل والأمان لم يحسوا به من قبل ، وينقلهم بمجهود يعتبر من أروع ماشهدته تلك المناطق ، من حياتهم الفطرية البائسة إلى حياة أكثر رقياً وحضارة مما أدهش حتى أعداءه من المستكشفين الفرنسيين الذين زاروا تلك القبائل بعد ذلك .

ولقد أقام رابح ينظم شئون تلك القبائل على ضفاف نهر شارى حتى عام ١٨٩٣ فلما اطمأن إلى شئون مملكته الناشئة هذه ، ترك بعضاً من الحاميات فى « تجباو » و « كونو » وغيرها من مدن نهر شارى ثم تحرك نحو الشمال لاتمام هدفه الكبير حتى بلغ حدود باجورى .

* * *

وباجورى هذه ولاية إسلامية تقع فى وسط أفريقيا كان يحكمها فى ذلك الوقت سلطان يدعى عبدالرحمن جورانج . ولقد تمتعت هذه الولاية باستقلالها التام حتى السنة التى بلغ رابح فيها حدودها أى حتى عام ١٨٩٣ . ولم يكن احتلالها فى ذلك الحين من بين أهداف رابح وإن كان مع ذلك قد اضطر إلى الهجوم عليها بقصد أن يفتح لنفسه طريقاً إلى ماوراء نهر شارى غربا وهو الطريق الذى كانت تتحكم فيه بلدة « مانهافا » الواقعة على حدود تلك الولاية .

وكانت بلدة مانهافا هذه تتمتع بموقف حصين يعصمها من الغزو فلما بلغها رابح أحكم حولها الحصار لمدة خمسة أشهر كاملة أذاق الباجورميين خلالها من أهوال القتال والحصار ما دفعهم فى النهاية، وقد يئسوا من تخليص مدينتهم، إلى الهرب منها عبر النهر فدخلها رابح وضم من بقى فيها من الأهالى إلى أسره.

وبسقوط ما نهافا فى يد رابح فتح أمامه الطريق إلى الغرب.. أما سلطان باجورمى بعد ذلك فقد أدرك من فقده لذلك الموقع الحصين أن عدوا عنيداً قد بدأ يبزغ نجمه على حدود ولايته وان هذا العدو لن يدع للأمن سبيلا إليه ففضل فى عام ١٨٩٤ أى بعد شهور قلائل من سقوط ما نهافا أن يستسلم للنفوذ الفرنسى الذى بسط حمايته على تلك الولاية بمقتضى الاتفاقية التى عقدت فى ذلك العام بين فرنسا والمانيا لتقسيم مناطق النفوذ فى افريقيا الوسطى والذى كانت فيه باجورمى من نصيب الفرنسيين .

وفى عام ١٨٩٧ زار تلك الولاية الكولونيل أميل جنتيل مبعوث الحكومة الفرنسية حيث أحسن السلطان جورانج استقباله فى عاصمته « ماسينا » ، وعقد معه معاهدة صداقة وتحالف ضد رابح عدوهما المشترك كما أرسل معه إلى فرنسا عند عودته إليها اثنين من رجاله هما سليمان « المرشد العالمى » و« لامانا » اظهارا لحسن مودته للحكومة الفرنسية .

غير أن رابح لم يكد يعلم بأمر تلك المحالفة الموجهة ضده حتى هاجم عبد الرحمن جورانج واستولى على مملكته بأسرها هذه المرة



(سليمان «المرشد العالمى» ومبعوث الباجورميين)



(لامانا مبعوث الباجورميين)

مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد ، وإن كنا قد ذكرنا هنا طرفا من هذه الأحداث فما ذلك إلا لنقول إن معركة مانهافا وإن كانت قد فتحت الطريق أمام رابح إلى بحيرة تشاد ومملكة بورنو فقد أضافت إلى أعدائه عدوا جديداً هو السلطان جورانج الذى لم يتورع فى سبيل الاحتفاظ بسلطانه من أن يلعب دور الخائن الذى مكن بمساعدته للفرنسيين ووضع بلاده تحت تصرفهم من تضييع جهود رابح فى مكافحة الاستعمار الأجنبي البغيض .

* * *

فتح الطريق إذن أمام رابح ، ومضت قواته وهى تنتقل من

نصر إلى نصر تزداد عددا وقوة حتى تمكن فى النهاية من الاستيلاء على لوجون واكتساح مملكة بورنو فجأة . .

وكان يحكم بورنو سلطان طاعن فى السن يدعى هاشم . أراد برغم ما اشتهر عنه من حب للقتال وتفوق فى فنونه أن يتعاهد مع رابح حقنا للدماء وتجنيبا لبلاده أهوال الحروب. ولكن ابن اخته وكان يدعى « خيارى » لم يرتح إلى رغبة خاله تلك وعدها جبنا منه وخيانة لبلده فلم يتردد فى قتله وتولى الحكم بدلا منه ثم قاد رجاله وسار بهم لمواجهة رابح فلحق به بالقرب من مدينة كوكا عاصمة البلاد .

وكان « خيارى » هذا مقاتلا ممتازا ورث الحذق فى القتال عن خاله الذى قتله كما كان جيش البورنويين يتألف من فصائل ممتازة التدريب والتسليح فدام القتال بين القوتين نهارا بأكمله فاز فيه « خيارى » فى النهاية على رابح فوزا عظيما واستولى على معسكره واعمل فيه السلب والنهب مرتكبا من الفظائع ما تقشعر لهوله الأبدان .

فى هذه المعركة العنيفة جرح فضل الله ابن رابح جرحا بليغاً ، وكان غضب رابح لهزيمته غضبا عاصفا فجمع رجاله ولامهم فى عنف وشدة على جبنهم وخورهم كما لام قواده وأغلظ لهم القول حتى أقسموا أمامه أن يغسلوا عار هذه الهزيمة أو يموتوا فى ميدان

القتال . وأعاد رابح توزيع الذخيرة على قواته وبات طول الليل يحرضهم ويبث فيهم العزم فما كاد يشرق الصباح حتى هاجم معسكر البورنويين من جديد وكان هؤلاء لا يتوقعون أن يلم رابح شعثه بهذه السرعة وأن يعاود الهجوم عليهم بعد هزيمة الأمس فأخذوا على غرة وطار صوابهم ، ولم يستطيعوا الصمود طويلا أمام هذه المفاجأة واصرار رابح على الثأر فولوا الأدبار أما « خيارى » فعندما استيقن من هزيمته وضاعت جهوده فى حض رجاله على الثبات والدفاع نزل من فوق جواده واستوى واقفاً على الأرض مفضلا أن يقع فى الأسر عن أن يركن إلى الفرار كالجبناء .

ولما مثل بين يدى رابح سأله هذا : « اين ملككم خيارى ؟ » فأجاب خيارى فى تحد : « ها هوذا واقف أمامك لا يطلب منك رحمة أو شفقة . . » والواقع أن دين خيارى كان ثقيلا لا يشفع فيه طلب الرحمة أو الشفقة بعد أن قتل من قتل من النساء والأطفال فى معسكر رابح فى الليلة الماضية ومثل أبشع تمثيل بمن وقع فى يده حيا من الأسرى . فأمر رابح بتنفيذ حكم الإعدام فيه .

استأنف رابح بعد انتصاره هذا السير إلى مدينة كوكا عاصمة بورنو فوجدها مخربة مهدمة فنشط إلى تعميرها من جديد كما نشط إلى اخضاع باقى أطراف مملكة بورنو التى لم تظهر غير مقاومة ضئيلة

بعد مصرع سلطانها خيـــارى حتى استتب له الأمر نهائياً في تلك الأصقاع .

* * *

باخضاع بورنو أصبح رابح سلطانا لمنطقة واسعة الأطراف مترامية الأبعاد دام حكمه لها أكثر من سبع سنوات أحبه خلالها شعبه من البورنويين وغيرهم وأعجبوا به اعجابا شديدا حتى تنازلوا له عن كل شيء وأحلوه من أنفسهم محل القائد والزعيم .

وبورنو هذه ولاية اسلامية كبيرة تقع في السودان الأوسط ويحدها شرقا بحيرة تشاد ونهر شارى الذى يفصلهما عن ودّاى وباجورمى وتبلغ مساحتها حوالى ١٤٠ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها نحو خمسة ملايين نسمة تبعاً لتقدير الرحالتين بارث وناينتجيل اللذين زاراها حوالى عام ١٨٧٠ أى بمعدل ثمانية وثلاثين شخصاً لكل كيلو متر واحد وهو معدل يعتبر عالياً بالنسبة لولاية افريقية ذات مساحة كبيرة كهذه ، وتتبع بورنو من ناحية طبيعة أرضها وتربتها حوض بحيرة تشاد الذى يكوّن سهلا عظيما يميل نحو الشرق بدرجة قليلة غير محسوسة ويتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٢٥٠ و ٢٦٠ مترا وتخترقه بعض التلال هنا وهناك بينما تتوسطه مساحة كبيرة من أراضى طفلية تغمرها المياة دون انقطاع .

وكان يسكن تلك المملكة فى أوائل القرن الثانى عشر قبائل همجية متوحشة أهمها قبيلة «سو» So التى اشتهر أفرادها بالقوة وشدة البأس . غير أن أحد ملوك ولاية كانم ممن يدينون بالدين الإسلامى ويدعى «دومانا» لم يلبث أن هاجمها فاتصلت بذلك الحرب بين الولايتين ودامت قرابة قرنين من الزمان . وفى أواسط القرن الرابع عشر كان أحد ملوك كانم قد اتخذ من بورنو قاعدة له ولكن قبائل البولالا تمكنت من الهجوم عليه وطرده منها واحتلالها ومنذ ذلك الوقت بدأت بورنو تأخذ شكل المملكة الموحدة المستقلة . ولقد ذكر ابن بطوطة أن أحد ملوك ولاية كانم استطاع فى منتصف القرن السادس عشر أن يأخذ بثأر أجداده من قبيلة البولالا وأن يضم بورنو إليه ويجعل منها إحدى ولايات مملكة كانم .

وتعاقبت بعد ذلك حروب طويلة بين سكان بورنو وسادتهم من حكام كانم نما خلالها بين سكان بورنو الاحساس بالشعور الوطنى حتى استطاع واحد منهم هو «الفقير محمد الغانم» بمساعدة الوطنين من العرب طرد الفاتحين والاستقلال ببورنو وبناء مدينة «كوكا» التى اتخذت منذ ذلك الحين عاصمة للبلاد .

وخلف الفقير محمد غانم فى حكم بورنو عام ١٨٢٥ ابنه عمر

فاستطاع أن يوطد استقلال بلاده بعد حروب طويلة فى الخارج والداخل فلما قتل فى احدى تلك المعارك حوالى عام ١٨٥٠ خلفه أخوه عبد الرحمن الذى اشتهر بالعدل والرحمة غير أنه كان ضعيف الارادة فلم يقو على رجال الاقطاعيات فى الداخل وغزوات القبائل الرحالة ومناوشات ملك ودّاى على الحدود ولهذا لم يلبث ابنه السلطان هاشم أن أقصاه عن الحكم وهو السلطان الذى كان يحكم بورنو عندما بدأ رابح يوجه قواته لغزو تلك المملكة .

* * *

من هذا التاريخ الموجز الذى سقناه عن بورنو وعن صلابة سكانها وشدة كراهيتهم للغزاة نستطيع أن نفهم سر استماتتهم فى قتال رابح . غير أن رابحا ما كاد يخضع هذه المملكة العنيدة حتى نشط إلى تنظيم اداة الحكم فيها وبث معالم الحضارة بين ربوعها حتى بدأ الأهالى يحسون فعلا بأن عهدا من الرخاء قد أقبل مع هذا الحاكم الجديد وبدأ شعراؤهم يقصدونه بالمديح ويطرقون أبواب عدله بالقصائد الطوال . فكان من بين ما قيل قصيدة لعالم برناوى تثبت منها الأبيات التالية كمثل تاريخى هام [١] :

---

(١) كتاب اسفار المرحوم محمد عثمان الميرغنى فى غرب افريقيا وانجلترا وعودته للسودان مع رفقائه . بعثة نيجيريا ــ طبعة بيروت الصفحة العاشرة .

لما فشا الظلم لدى البرنوح [1] وعمم العصيان كل الروح
وصار كل الناس تابعينا أمر الهوى والشر فاعلينا
فأرسل الله اليهم رابحا من أرض خرطوم أتاهم فاتحا

والواقع أن رابحا قد اتبع فى حكمه لتلك البلاد أسلوبا جديدا دل على أن مقدرته فى حكم الشعوب لا تقل عن مقدرته الحربية الفائقه. فقد قسم البلاد إلى مقاطعات جعل على كل واحدة منها حاكما من أعوانه المقربين إليه. ولكن لما كان هؤلاء غرباء عن أهل البلاد يجهلون عوائدهم وتقاليدهم فقد عين إلى جوارهم حكاما محليين من بين الأهالى أنفسهم ليكونوا واسطة بينهم وبين حكام المقاطعات فى تحصيل الضرائب وتنفيذ الأوامر..

وكان الحاكم العام فى النهاية وهو رابح يمثل السلطة العليا التى تصدر عنها الأوامر والقوانين وبذلك ضمن ولاء الأهالى وولاء رؤسائهم المحليين له وأثبت ذلك النظام نجاحه طوال الفترة التى قضاها رابح سلطاناً لتلك البلاد. أما عن الشئون المالية فقد جعل رابح على كل مقاطعة قدرا من الضرائب يدفع نصفه لحاكم المقاطعة والنصف الآخر لرابح الذى كان يتولى منه الانفاق على جلب المهمات وصيانة الأسلحة وإنشاء المبانى الصحية المريحة فى انحاء البلاد، وقد كان مما يزيد فى دخل رابح ما يغنمه من

---

(١) البرنوح هم قبائل البورنويون.

الغزوات التي كان يشنها على القبائل المحيطة بمملكته والى دأب على القيام بها لتوسيع أراضيه وبسط سلطان البورنوبين على البلاد المجاورة له .

لهذا كله لم يكن عجيبا أن يشهد اميل جنتيل فى كتابة « سقوط امبراطورية رابح » ان البورنوبين قد أحبوا ذلك الزعيم القوى الحازم الذى اختلط بالأهالى واندمج معهم حتى أصبح واحداً منهم فتنازلوا له عن كل شيء واستكانوا فى ظلال عدله وحزمه إلى حياة طيبة هادئة وهم الذين رأيناهم لا يصبرون على غزو أو يستنيمون لضيم. ويختم جنتيل شهادته تلك بتعليق صادق حين يستطرد فيقول: « وهكذا اثبت رابح أن حسن النظام فى العمل جدير فى كل زمان ومكان أن يفضى إلى أعظم النتائج وأفضلها [1] » .

---

(١) كتاب « سقوط امبراطورية رابح » ، صفحة ٢٣٧ .

رابح ... الامبراطور ..

« دكوة العاصمة الجديدة — سراى رابح —
رابح وشئون أسرته — كلمة الحق فى رابح —
حواء ابنة رابح — غزو مملكة سوكوتو . »

لم يكد رابح يستقر فى مملكة بورنو ، ويرسى قواعد حكمها على النحو الذى فصلناه فى الصفحات السابقة حتى عمد إلى نقل العاصمة من كوكا إلى مدينة دكوة جنوبى بحيرة تشاد .

ولقد قدر لمدينة دكوة التى اختارها رابح موقعا يتوسط مملكته الواسعة ، أن تشهد خلال حكم سيدها عصرا زاهيا جعل منها بحق المدينة الأولى فى وسط أفريقيا . . فقد كان طبيعيا وقد استتب الأمن فى تلك البقاع تحت إدارة رابح الحازمة أن تنشط فيها حركة التجارة وأن تصبح دكوة مركزاً عاما لها . ولقد جذبت إليها دكوة جميع سكان وسط أفريقيا على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومللهم ونحلهم من الأسود الحالك إلى الأبيض الناصع فكان من سكانها الطرابلسى والجزائرى وقبائل الهوسا والجلابة ، ممن يقطنون فى الأصل شواطىء النيل ، إلى جوار الباجورميين وسكان بورنو الأصليين . كل هذه الخلائط من الأجناس البشرية كانت تعيش

فى تلك المـــدينة المزدهرة جنبا إلى جنب بملابسهم المختلفة وعاداتهم المتباينة .



رابح الامبراطور فى عاصمة مملكته دكوة

وكانت مدينة دكوة كما أنشأها رابح تتكون من قسمين : قسم خارجى يتوسطه ميدان فسيح يتجمع فيه سوق المدينة ويجد فيه السكان ما يشاؤون من الأقمشة القطنية والحريرية والسكر والبن والشاى وأدوات المنازل والحلى والمرجان والذهب . وكان هذا القسم يضم إلى جوار السوق منازل شيدت فى الخلوات لمشاهير

الرجال فى تلك الأراضى وكان بينها وبين بعضها مسافات متباعدة كما كانت مرتبة ترتيبا هندسيا رائعا . . أما القسم الداخلى فقد كانت له جدران وحوائط منتظمة وأسوار تحتوى على قصور لبعض أولى الشأن وكان أهمها بالطبع سراى رابح .

ولقد وصف اميل جنتيل سراى رابح بعد أن دخل دكوة منتصراً عقب مقتل سيدها وأفول نجمه فقال إنها كانت بشوارعها وطرقاتها وأفنيتها الداخلية وحجراتها أشبه بالمدينة المتسعة منها بالقصر .. وكان يحيط بتلك السراى سور يبلغ محيطه المائة متر ، وارتفاعه أربعة أمتار تقريباً ، وقد أقيمت عليه بوابة عمومية كبيرة الاتساع ذات باب سميك ورتب بداخلها قبة واسعة لتكون محلا للحرس . وكان على الانسان أن يسير خلال خمس طرق ضيقة حتى يصل إلى الطوابق التى يسكنها رابح وهى مشيدة من حوائط غليظة السمك وبالطابق الأرضى منها ثلاثة ابهاء متسعة يتوسطها بهو رئيسى كان يعقد فيه رابح جلساته الخاصة بإدارة شئون مملكته كما يستقبل فيه كبار زواره ومبعوثى حكام الولايات إلى بلاطه . ولما كانت الأخشاب نادرة بالمدينة فقد جعل رابح لهذه الأبهاء نوافذ مزدوجة زودها بقماش قوى مصنوع صنعاً متقناً كما فرش أرضها بالسجاجيد والأسرة والمساند فكان الجالس فيها يتمتع باصريه بصور الفخامة والجمال بينما يأتيه الهواء

رطباً منعشاً بعد أن يتخلل النوافذ المتعددة التى شيدت على نسق خاص لتحقق هذا الغرض .



سراى رابع من الداخل بمدينة دكوة

وغير بعيد عن تلك الابهاء كانت مساكن الحريم وهى لا تقل روعة أو فخامة عن سابقتها كما كان يوجد بالسراى أيضاً فناء

متسع لحفظ الذخيرة من البارود والمفرقعات يؤدى إليه دهليز ضيق يحرسه رجال رابح الأشداء .

أما عن حياة رابح الخاصة فقد قيل إن زوجاته الشرعيات وخدمه وسراريه كانوا يبلغون جميعاً نحو الألف تقريباً وإن كان من الواضح أن هذا الرقم لا يخلو من مبالغة كبيرة . كما كان له ثلاثة أبناء هم فضل الله ، الذى تزوج بابنة السنوسى وحمل عبء الكفاح ضد الاستعمار بعد مقتل أبيه ، ومحمد نيابى ، وحواء التى لعبت هى الأخرى دوراً كبيراً فى حياة رابح الحربية ومشروعاته التى كان يعدها لبسط سلطانه على من حوله من حكام الولايات .

وكان كل واحد من هؤلاء الأبناء يسكن فى سراى تشبه سراى أبيه وإن اختلفت عنها فى صغر حجمها . وقد اشتهر فضل الله ومحمد نيابى بالفضيلة فلم يعرف عنهما أنهما أخذا من اللهو بما يأخذ به الشباب من أبناء الملوك وإن دل هذا على شىء فعلى ما كان عليه رابح من عزم وشدة فى تنشئتهم وتدبير شئونهم وشئون أسرته جميعها وحرصه على أن تكون هذه الأسرة فى أتباعها لقواعد الدين وآدابه قدوة تحتذى لأهالى تلك البلاد فأثبت بذلك وعياً دقيقاً بما يجب أن تتحلى به الأسرة الحاكمة من آداب ومثل حتى تكون نافذة الكلمة وحتى تكون طاعتها واجبا محتوما . .

والواقع أن الخلق الإسلامى ، ودستور القرآن فى سياسة



سراى محمد نيانى من الداخل

النفس البشرية وتعلق رابح وإيمانه بذلك الدين الحنيف كل هذا قد لعب دوراً كبيراً فى خلق الحاكم الصالح العادل من ذلك الرجل الذى كان لا يعرف غير لغة السيف والمدفع . ولقد أثبت النجاح المضطرد الذى كان رابح يقطف ثماره يوماً بعد يوم والذى تمثل أول ما تمثل فى تعلق البورنويين به وحبهم له ، أثبت هذا النجاح أن الذخيرة الدينية هى دائما أفعل وأقوى من كل ذخيرة أو عتاد ..

ولقد كان رابح حريصاً دائماً على أن يقيم شعائر الدين ، وأن يحيي سننه لا يشغله عن ذلك ما كان ينوء به من أعباء الحكم والحرب حتى روى عنه « جاستون دى جاريك » فى كتابه « حياة

السلطان رابح، صفحة ١٣٥ أنه بينما كان مشغولا بحصار كاسورى وقد أقبل إليها من دكوة بقوات عظيمة حل عيد الأضحى الكبير فأمر بتحيته بإطلاق القذائف من مدافعه الثلاث التى كان قد غنمها بعد معركة تجباو (كما سيأتى فى الصفحات المقبلة . .) ولقد فعلت هذه القذائف التى أطلقها رابح شمالى كاسورى تحت أنف الأعداء وبصرهم أثرا بعيداً فى نفوس هؤلاء وهى إذ هزت جنبات المنطقة كلها فقد هزت معها قلوب أعدائه وعلمتهم مقدار مافى خصمهم من إيمان وقوة وتحدى ..

أما عن صرامة رابح وقسوته فقد روى المؤرخون الفرنسيون قصصاً كثيرة عنها لا تخلو من المبالغة التى يأباها العقل كما أفاضوا فى الحديث عن العيون والارصاد التى قيل أن رابحا قد بثها فى جميع أنحاء مملكته حتى انتشر بذلك التجسس وخيم على البلاد نوع من الحكم الدكتاتورى الخانق أخذ فيه كثير من الأبرياء بالعقاب بدون ذنب جنوه ..

وليس كل هذا مما يستحق التصدى له فإن الهوى والغرض فيما دسه هؤلاء عمداً على تاريخ ذلك المواطن البطل لأظهاره بمظهر الطاغية المتجبر على قدر كبير من الوضوح . وليس هذا غريبا . . فإن أغلب الذين أرخوا لحياة هذا الفاتح السودانى هم من بين أعدائه من الفرنسيين وليس الذى شاب تاريخ رابح من مفتريات

وأكاذيب بالجديد علينا فإن أغلب تاريخ أبطالنا قد كتب بأقلام أعدائهم من المغرضين فتشابهت كلها فيما أصابها من مسخ وتشويه ..

ونحن هنا لا ندافع عن رابح دفاعا متعصباً رخيصاً فنقع بذلك فى الطرف الآخر من الخطأ الذى وقع فيه أعداؤه ، كما لا نستطيع أن ننكر أنه كان حازما حقا ، وصلبا وعنيدا إلى حد بعيد وفرق كبير بين هذا كله وبين ما يتهم به من قسوة وبطش وإرهاب .. وأنت لا تستطيع أن تتصور عصاميا مثله استطاع أن يؤسس بسيفه ملكا كهذا ، وان يكافح استعمارا كالذى كافحه ما لم يكن على شىء كثير من الحزم والصلابة . ولقد أحيط معسكر رابح دائما بالخونة من رجال جورانج والسنوسى وكان عليه إما أن يفتح عينيه عليهم ويتربص بهم وإما أن يترك حياته ومصيره نهبا لمؤامرات هؤلاء الجواسيس الذين كانوا يعملون على تسليمه للفرنسيين .. حقا قد تكون هناك بعض الأخطاء التى لم يكن بد من وقوعها ، وقد يكون هناك نفر من الأبرياء لقوا حتفهم بغير ذنب ، ولكن ما تكون حياة الأفراد فى سبيل أمة وسلامتها.؟ إن حكم الشعوب فن لا يعترف بالعواطف ، والحرب حين تكون من أجل حرية وطن واجب مقدس تكون فيه الرحمة ضعفاً واللين جبناً وخوراً ، والتشدق بمبادىء الانسانية دعوة إلى التكاسل والخنوع والتسليم ..

ومع ذلك فقد استطاعت كلمة الحق ، فى فترات مختلفة ، أن تفرض نفسها على أقلام هؤلاء المؤرخين الموتورين . فاميل جنتيل الذى روى عن رابح الكثير من أمثال تلك الأكاذيب ، والذى يقول فى موضع من حديثه عنه أنه قد فرض على أهالى بورنو حكما ارهابيا مظلما ، يعود فى موضع آخر من حديثه فيقول ان البورنويين قد أحبوا هذا الحاكم القوى فتنازلوا له عن كل شيء . . وكما يصفه بالقسوة والوحشية فى بعض اجزاء من كتابه عنه ، لا يملك إلا أن يقرر فى أجزاء أخرى منه أنه « بالمقارنة بين رابح ومن أخلفوه فى حكم بورنو نجد أنه كان أفضلهم جميعاً ويفوقهم فى كل شيء .. فهو لم يكن قاسيا مثلهم ، وكانت الشجاعة من أبرز صفاته بينما كانوا هم يفتقرون اليها إلى حد بعيد .. [1] » .

° ° °

كان لرابح كما قدمنا ابنة تدعى « حواء » كثيرة الشبه بأبيها وكانت تمتاز بذكائها وشجاعتها كما كان لها ولع شديد بركوب الخيل كما يفعل الرجال فكانت تلبس دائما ملابس الشبان ولا ترى إلا ممتطية جوادها حاملة بندقيتها تشارك فى معارك أبيها جنباً

---

(١) كتاب « سقوط امبراطورية رابح » اميل جنتيل ص ٢٠٢ .



خيمة رابح وقد حلتها بعض آيات القرآن الكريم منقوشة فوق الأعلام

إلى جنب مع باقى الرجال حتى استطارت شهرتها فى القتال ومهارتها فى الرماية وإصابة الهدف .

ولقد كان لهذه الفتاة التى ورثت عن أبيها حب المغامرة دور كبير فى شئونه الحربية . فقد تطلع رابح بعد الاستيلاء على بورنو إلى غزو مملكة سكوتو الواقعة إلى الغرب منها وكان يحكمها سلطان مسلم يرهق الأهالى بمظالمه وكان له ابن يدعى « حياتو » وهو فتى مثقف ذو شخصية مكتملة فكان فى نزاع مستمر مع أبيه

من أجل أخطائه ومظالمه ضد أهل البلاد حتى اضطر فى النهاية الهرب من وجهه مع مائة من الفرسان الأشداء والاتجاه إلى بلدة « بالدا » فى مقاطعة مندارا . وشجع هذا رابحا على انتهاز الفرصة والاستعانة بالإبن الهارب فى غزو مملكة أبيه والاستيلاء عليها . فاتصل بحياتو ونجح فى تزويجه من ابنته حواء بعد مقتل زوجها الأول فى إحدى المعارك .

وقامت حواء بدور كبير فى إغراء حياتو وتشجيعه على الثورة ضد أبيه حتى استجاب لها أخيرا وقبل أن يقود جيشا يزوده به رابح لغزو مملكة سكوتو . ولكن هذا الجيش لم يلبث أن هزم فى معركة دارت شمالى « كاسورى » قتل فيها حياتو بالرغم من بلائه المجيد وما أبدته حواء خلال المعركة من ضروب الشجاعة والاستبسال .

وبموت حياتو فى تلك الواقعة خاب أمل حواء فى تنفيذ مشروعات أبيها الخاصة بالاستيلاء على سكوتو فعادت إليه وتزوجت للمرة الثالثة من أحد أفراد قبيلة الجلابة ويدعى « عبيد » الذى عاشت معه بعد هذا زمنا طويلا . .

الجاسوس الفرنسي

« اميل جنتيل – تحالفه مع السنوسى – فوق نهر شارى – جنتيل يزور ماسينيا – بحيرة تشاد – رسل السنوسى وجوراع – عودة الجاسوس إلى فرنسا – بيت العنكبوت »

مامن مؤرخ أراد أن يتعرض لتاريخ رابح استطاع أن يغفل اسم إميل جنتيل أو يغفل الرجوع إلى كتابه الذى نشره تحت عنوان « سقوط امبراطورية رابح » . .

والواقع ان اسم اميل جنتيل وارتباطه بسقوط امبراطورية رابح وبالأحداث التاريخية الهامة التى دارت فى مناطق السودان الوسطى فى الفترة الواقعة بين أعـــوام ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ليجعل من المستحيل على من يؤرخ لتلك الحقبة الحاسمة أن يغفل عن تتبع جهود ذلك المبعوث الفرنسى فى تلك البقاع والدور الذى لعبه فى تطور الأمور على ذلك النحو الذى انتهت اليه . .

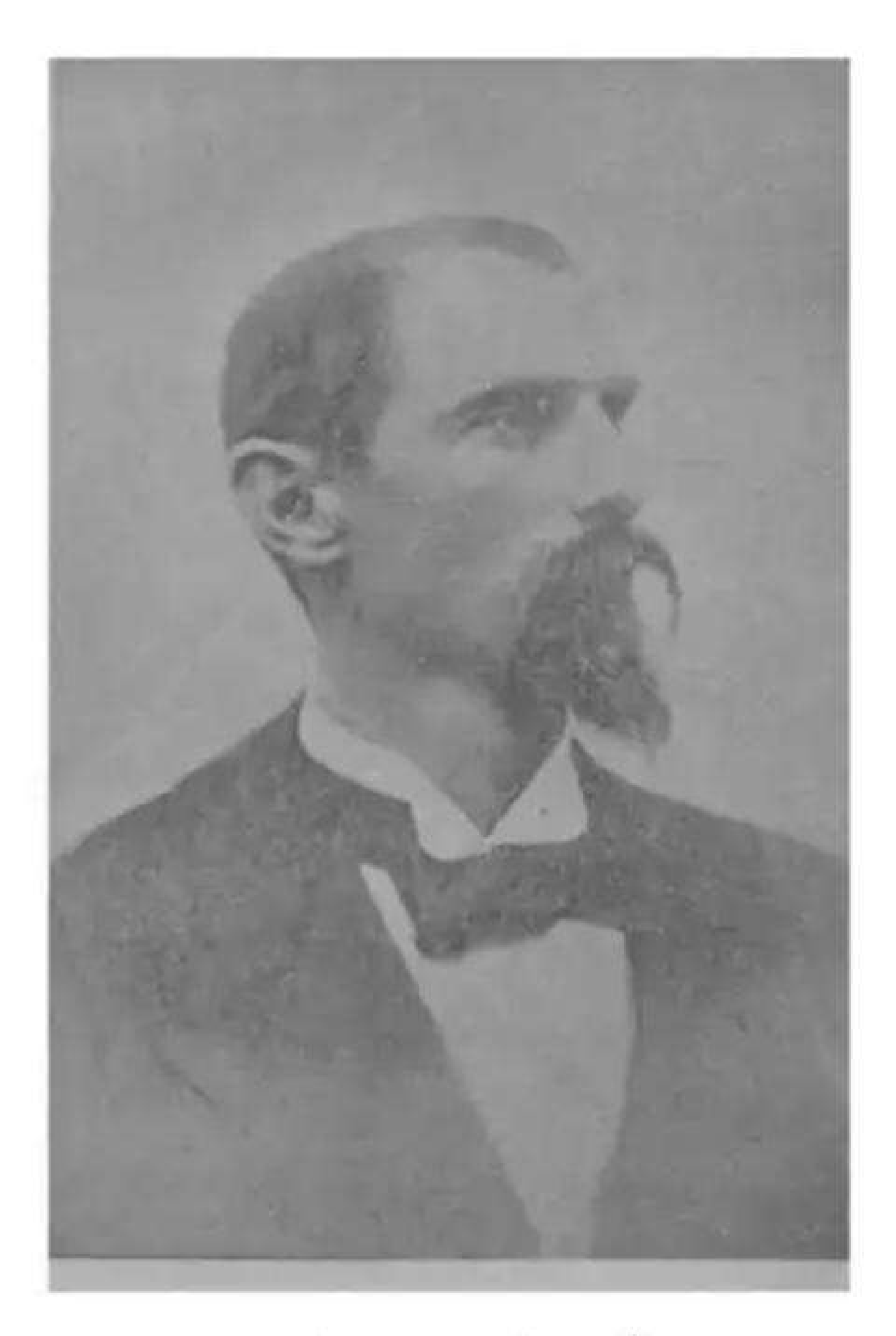
ولقد ولد اميل جنتيل هذا فى فرنسا فى عام ١٨٦٦ ثم خدم فى البحرية الفرنسية التى لم يلبث أن تركها عندما وقع عليه اختيار الحكومة ليكون من بين مبعوثيها إلى الكونغو حيث ارتاد منطقة

السوغا العليا . وفى عام ١٨٩٥ عندما كان رابح فى أوج مجده عاد جنتيل موفداً من قبل الحكومة الفرنسية ليرتاد مناطق نهر شارى وبحيرة تشاد ويمهد لانضمام تلك المناطق إلى البلاد الواقعة تحت النفوذ الفرنسى فى قارة أفريقيا . ولقد استغرقت بعثة جنتيل الأولى هذه الأعوام ما بين ١٨٩٥ ، ١٨٩٨ كما منح من أجلها المدالية الذهبية الكبرى المقدمة من الجمعية الجغرافية الفرنسية وعدته الحكومة الفرنسية أحد أبطالها لما عادت به تلك البعثة على فرنسا من نتائج باهرة .

وكان من أول هذه النتائج تسوية الموقف بين السنوسى والفرنسيين وهو الموقف الذى كان لايزال معلقا بعد مقتل كرامبل كما قدمنا ، وعقد معاهدة مع السلطان جورانغ وضعت الباجورمى بمقتضاها تحت الحماية الفرنسية نهائيا عام ١٨٩٧ . وبهذين العملين ضمن جنتيل لنفسه صداقة قوتين هامتين ، بل ضمن لنفسه أيضا كافة المساعدات التى كان على سلطان جوارنغ بمقتضى المعاهدة التى أبرمها أن يقدمها لجنتيل ضد عدوهما المشترك رابح . .

* * *

بدأ جنتيل رحلته من الكونغو الفرنسى على السفينة « ليون بلوت » التى اعتزم بها اختراق نهر شارى وكان معه على ظهرها ثلاثة



الجاسوس الفرنسي ... إميل جنتيل

من الفرنسيين وأحد التراجمة وخمسون من السنغاليين المسلحين بنحو ثمانية وخمسين بندقية .

وقبل أن يبدأ جنتيل سيره من « جريبنجى » اتصل به مبعوثو السنوسى وكان على رأسهم رجل يدعى صلاح الطرابلسى ولم تلبث العلاقات بينه وبينهم أن أصبحت طيبة للغاية حيث تم التفاهم على حادثة مقتل كرامبل وكيف أن السنوسى برئ منه تماما وأن المسئولية كلها فيه تقع على رابح . غير أنه حدث أثناء عودة هؤلاء المبعوثين إلى ديارهم أن هاجمهم الوثنيون من رجال قبيلة التومباكوس Tombacos وقتلوا « صلاح الطرابلسى » ونهبوا متاعه فظن السنوسيون أن هذا الحادث قد تم بتحريض من جنتيل انتقاما لمقتل كرامبل وكادت بذلك رحلة جنتيل تتعرض للفشل من أولها لولا أنه سارع بازالة نتائج ذلك الحادث مظهرا براءته من التحريض على تلك الجريمة كما توسط لدى الوثنيين لإعادة الأشياء المسروقة وهكذا مر الحادث بسلام واستطاع جنتيل فى النهاية أن يغادر جريبنجى وقد اطمأن تماما إلى موقف السنوسى منه . .

بدأ جنتيل بعد ذلك يمخر بسفينته عباب نهر جريبنجى أحد روافد نهر شارى مصعدا فيه حتى بلغ المجرى الرئيسى للنهر بعد رحلة طويلة بين مختلف القبائل القاطنة على ضفافه والتى اختلفت طريقتها

فى استقباله : فقد توجست بعضها خيفة منه بينما رحب به بعضها الآخر ترحيبا لم يخل مع ذلك من الحذر والقلق . وعلى العموم لم يصطدم جنتيل خلال تلك المرحلة من رحلته بأية متاعب حقيقية مع سكان تلك المناطق الذين ولا شك قد أخذهم الرعب لمرأى سفينته وهى تشق صفحة النهر حتى سموها « بالمنزل العائم فوق سطح الماء » بالرغم من أن الفئة المثقفة منهم كانت قد سمعت عن المراكب البخارية من الذين قاموا بتأدية فريضة الحج . .

ولقد كتب جنتيل بعد ذلك فى معرض التحدث عن شعور الأهالى أزاءه يقول : كان الخوف هو الشعور البادى على الأهالى نتيجة قدومنا المفاجىء وكانوا يتساءلون من أين أتينا وإلى أين وجهتنا . هل جئنا لمصادقة سلطان باجورمى أو رابح . . وغير ذلك من المسائل الغامضة . . »

والواقع أن حيرة الأهالى هذه وجهلهم بحقيقة أمر تلك البعثة وهل هى حليفة لرابح أم لجورانج . وهما القوتان اللتان كانتا تتنازعان النفوذ فى تلك المنطقة ، هى التى مكنت جنتيل من أن يخترق تلك البلاد دون أن يلقى مقاومة ما حتى أمكنه أن يصل فى النهاية إلى بلدة « بوجومان » على ضفاف نهر شارى العليا .

أقام جنتيل فى بوجومان بعض الوقت يجمع المعلومات ويتصل عن طريق الرسل بالسلطان عبد الرحمن جورانج فى عاصمته

ماسينيا . ولقد أحسن أهالى تلك البلدة التابعة للسلطان جورانج استقبال جنتيل ، كما استطاع هو أن يتعرف من اتصاله بهم على الكثير من أحوال البلاد وكيف أن الباجورمى ما كادت تخرج من الحرب التى خاضتها عام ١٨٧٠ ضد مملكة ودّاى حتى أصيبت بحملة رابح (التى سبق ذكرها) والتى كانت آثارها ما زالت باقية حتى ذلك الحين . ولم يغب عن جنتيل أن وجود رابح فى مملكة بورنو يعتبر خطراً دائماً على الباجورميين قد يدفعهم إلى الترحيب بمحالفة النفوذ الفرنسى فعمل على استغلال الموقف لصالح حكومته بعقد معاهدة التحالف بينه وبين السلطان جورانج .

وبعد اثنى عشر يوماً من إقامة جنتيل ببلدة بوجومان وصله الرد من السلطان على رسالته إليه التى كان قد حملها إلى العاصمة أحد رجاله من السنغاليين يدعى أبا بكر وبالرغم من أن الرد كان مبهما إلى حد بعيد فان « أبو بكر » عاد فى نفس الوقت فى صحبة ثلاثة رجال من حاشية السلطان الذين كانوا يتمتعون بثقته إلى حد بعيد . وكانت مهمة هؤلاء الرجال أن ينقلوا إلى جنتيل سرور السلطان بمقدمه وترحيبه بمقابلته التى يستحسن السلطان أن تتم فى العاصمة نفسها ماسينيا .

عندئذ وجد جنتيل أن الفرصة قد سنحت فعول على زيارة ماسينيا ، متخذاً اليها طريق نهر « أرجيج » أحد روافد نهر شارى .

وأحسن السلطان جورانج استقبال ضيفه فى مظاهرة عسكرية باهرة وتم فى هذه الزيارة عقد المعاهدة المذكورة كما زود جورانج الجاسوس الفرنسى باثنين من الأدلاء ليقودا رحلته إلى بحيرة تشاد بالرغم من أنه كان يرى فى محاولة اختراق مناطق رابح مجازفة خرافية غير مأمونة العواقب .

استأنف جنتيل بعد أن فرغ من تحقيق أهدافه فى الباجورمى رحلته عائداً إلى نهر شارى ووجهته بحيرة تشاد كما قدمنا ماراً بمدينتى «لوجون» و «كاسورى» ، وكانت كاسورى هذه مدينة كبيرة محصنة يبلغ تعداد سكانها أكثر من اثنى عشر ألف نسمة تحيط بها أسوار مرتفعة سميكة تمتد على جبهة طولها أربعة آلاف متر وكانت منازلها شاهقة الارتفاع تحتـــوى على أدوار تزيد فى الارتفاع عن هذه الأسوار وكان رابح قد ترك بها قوة كبيرة لحمايتها كما وضع فى مدينة «جولفى» هى الأخرى حامية كبيرة وعن طريق هاتين الحاميتين كان يبسط سلطانه على دلتا نهر شارى .

ولكن لسبب لايزال غامضا حتى الآن كان رابح قد استدعى هاتين الحاميتين إلى عاصمته «دكوة» ، قبل وصول جنتيل إليهما بنحو ثلاثة أيام وبهذا انفتح الطريق أمام جنتيل حتى أشرف على بحيرة تشاد فى صباح ٢ نوفمبر ١٨٩٧ دون أن يعترض طريقه أحد . .

وتشـاد بحيرة فى السودان الوسطى تقع بين ولاية كانم

فى الشمال الشرقى وبورنو فى الجنوب الغربى على ارتفاع يبلغ ٢٦٠ مترا عن سطح البحر وهى تشبه تقريبا المثلث المتساوى الأضلاع حيث تقع زاوية الرأس فى الجنوب الغربى. وتبلغ مساحة البحيرة حوالى ... ٢٠ كيلو متر مربع وهى عبارة عن حوض كبير مغلق يمتد إلى أراضى بنوا ويحدها من الغرب نهر النيجر وفى الجنوب الأوبنجى والكونغو وفى الشرق النيل الأبيض. وتتغذى البحيرة من الأمطار عن طريق الرياح المشبعة التى تهب من خليج غينا والتى تتساقط ابتداء من شهر يوليو حتى شهر اكتوبر كما تصب فيها الأنهار الآتية من الغرب والجنوب وأهمها نهر شارى الذى تصب مياهه فى الجزء الجنوبى الغربى من البحيرة وهو أكثر أجزاء البحيرة عمقا أما الأجزاء الشمالية والجنوبية الشرقية فهى صخرية وتحيط بالأنهار التى تصب بها هناك مجموعات من الجزر تسمى ارخبيل كورى وبودوما تجعل من الصعب سير المياة مباشرة .

وبفضل ما يحمله نهر شارى ورمال كانم نتيجة لهبوب الرياح الشمالية الشرقية فى فصل الشتاء يتعرض الجزء الشرقى أكثر فأكثر لتكون مثل هذه الجزر التى تمتد من الجنوب الغربى حتى الشمال العربى .

وتشبه بحيرة تشاد الكثير من البحيرات الافريقية التى تتضاءل مساحاتها تدريجياً ، ومن المحتمل أن هذه البحيرة كانت تصب

فى الأزمان الغابرة عندما يحل موسم الفيضان فى بحر الغزال من جهته الشمالية الشرقية ، ومياه هذه البحيرة عذبة ويحيط بالكثير من جزرها الأشجار والحشائش التى يتغذى منها البقر والخيول .

* * *

كان جنتيل يعرف أن نجاح رحلته هذه إنما هو مدين به فى الواقع إلى تلك الظروف الغامضة التى جعلت رابح يحجم عن مهاجمته . ولقد كان سكوت رابح هذا مدعاة فى الواقع إلى الشك والريبة أكثر منه إلى الأمن والسلام . لذا فقدقرر جنتيل العودة سريعاً مفضلا ألا يحمل الظروف أكثر من ذلك ولينجو من المذبحة المروعة التى كان معرضاً لها فى أى وقت يفكر فيه رابح بالتعرض بجحافله لتلك القافلة الهزيلة التى يقودها والتى لم يكن يزيد تعدادها عن الخمسين رجلا . .

قرر جنتيل إذن مغادرة تلك البلاد سريعاً مكتفياً بما أحرزه من نتائج سياسية مع السنوسى وسلطان الباجورمى حامداً للظروف أنها جنبته الاحتكاك برابح الذى كانت شهرته تصدمه فى كل خطوة من خطواته ، أو الالتقاء بمصير كمصير سلفه كرامبل . ولما كان قد عول على أن يصحب معه عند عودته إلى فرنسا مبعوثين يمثلون السنوسى والسلطان جوارنج ليسوقهم كأعلام النصر فى مواكبه هناك وليدلل بهم على مقدار ما أصابه فى تلك

البقاع من ظفر ونجاح لذا فقد أرسل إلى السنوسى طالباً منه أن يوفد اليه اثنين من أعيان البلاد ليتشرفوا بزيارة فرنسا فى صحبته كما أرسل يطلب نفس الطلب من السلطان جوارنج .





الحاج تكور . مبعوث السنوسى أحمد . سفير الباجورميين الازرج . مبعوث السنوسى الآخر

واستجاب السنوسى وسلطان الباجورمى لطلبات حليفهما الجديد . . فأرسل الأول إثنين من رجاله هما الحاج تكور والأزرج ، كما أرسل الثانى سليمان ، أحد الدليلين اللذين اصطحبا جنتيل إلى بحيرة تشاد وكان على شهرة كبيرة بمعرفة تلك المناطق حتى كانوا يسمونه « المرشد العالى » ، وكان معه رجلان احدهما يدعى أحمد والآخر يدعى لامانا . . فاصطحب جنتيل كل هؤلاء وعاد إلى فرنسا التى استقبلته استقبال الغزاة الفاتحين وخلعت عليه من الجوائز والهدايا ما يتناسب وما أداه للاستعمار الفرنسى من خدمات فى تلك الأراضى البكر . .

ولقد وصف جنتيل بنفسه ذلك الاستقبال الذى لقيه عند عودته فقال : « ولقد قوبلت فى باريس مقابلة عظيمة أثرت فى نفسى كما نلت جوائز كثيرة وكنت منشرح الصدر بتقديمها إلى حيث نلت شرفا عظيما فى مجلس الوزراء باستعمار الأماكن والأراضى والبلاد التى اكتشفتها .. »[1]

ولكن سرور جنتيل هذا لم يدم طويلا فان الأخبار السيئة لم تلبث أن وصلت إلى فرنسا بعد ذلك . كانت أداة رابح الحربية التى سكتت على جنتيل كل ذلك الوقت قد بدأت الآن تتحرك وتضرب ضربتها لتطيح بكل ما كسبه الجاسوس الفرنسى فى رحلته ولتجعل من إدعائه بأنه قد نجح فى استعماره لتلك الأماكن والأراضى والبلاد كذبة لا ينهض على صدقها أى دليل ..

وكأنى بكل ما تركه جنتيل فى تلك المناطق من أثر ، وكل ما حققه لبلاده من كسب طوال الأعوام الأربعة التى استغرقتها رحلته ، وكل الجهد الذى بذله فى عقد المحالفات مع السنوسى والباجورميين .. كأنى بكل هذا لم يعد أن يكون بيتاً من العنكبوت ما كاد رابح ينهض له حتى تحطم وهوى مزقا وانقاضاً وأصبح أثراً بعد عين من قبل أن تخمد أصداء الصيحات التى أرسلها إميل جنتيل فى فرنسا معلنة عن نصره الموهوم .

---

(١) «سقوط امبراطورية رابح» لمؤلفه اميل جنتيل صفحة ١٠٤

انتقـــام رابح ...

« رابح يتنبه إلى الخطر ـ معاقبة القبائل ـ ماسينيا تحترق ـ الباجورى فى قبضة رابح ـ حلة بريتونييه ـ موقعة تجباو ـ حادثة بيهاجل ـ شرف فرنسا » .

ما كاد جنتيل يغادر مناطق السودان الوسطى وقد خيل إليه أنه قد ضمها نهائيا إلى النفوذ الفرنسى حتى تحرك رابح بقواته ليمسح عن تلك البقاع آثار الخيانة التى نثرها جنتيل وراءه فى الباجورمى وفوق ضفاف نهر شارى . .

إن رابحا لم يغفل لحظة واحدة عن بعثة جنتيل . وهو وإن كان قد تركها تذرع بلاده من الجنوب حتى الشمال فما كان هذا عن ضعف أو خشية أمام تلك القافلة الهزيلة التى لا تكاد قوتها تزيد عن ثمانية وخمسين بندقية ، وإنما لأن قافلة كهذه لا يمكن أن تكون ذات خطر كبير على نفوذه الذى تحميه جحافل من رجاله الأقوياء المسلحين . . والواقع أن رابحا أراد أن يتجنب الاحتكاك بجنتيل وإعادة قصة كرامبل من جديد دون مبرر هذه المرة حتى لقد رأيناه يسحب حامياته من كاسورى وجولفى قبل أن يبلغهما جنتيل بأيام ثلاثة . .



فتوحات رابح فى السودان الوسطى

ولكن النتائج التى نجمت عن تلك الرحلة لم تلبث أن نبهت رابحا إلى خطرها الحقيق . . فقد كان ترحيب القبائل الخاضعة لنفوذه على ضفاف نهر شارى بتلك البعثة مضافا إليه تلك المعاهدة التى أبرمها جنتيل مع جورانج شيئا ذا خطر بالغ على سلطة رابح فى تلك المناطق حفزه على الإسراع بالقيام بعمل مضاد يفسد على الاستعمار الفرنسى مقاصده ويعيد الأمور فى إمبراطوريته الواسعة من قبل أن تفلت من يديه وتؤدى به وبجهوده السابقة التى بذلها إلى الدمار والتشتت . .

وهكذا هب رابح إلى إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل وصول بعثة جنتيل فبدأ بمعاقبة القبائل التى رحبت بها وإشعارها بأن قبضته مازالت قوية وما زالت قادرة على البطش بكل من يعاون الاستعمار الأجنبى أو يرحب به . وما كاد يفرغ من هذا ويتلقى خضوع زعماء القبائل له من جديد حتى استدار بعد ذلك لمواجهة الباجورميين وتلقين سلطانهم درسا لاينساه . .

تقدم رابح بقواته مجتازاً أراضى الباجورميين للمرة الأولى منذ معركة مانهافا السابقة دون أن يلقى أية مقاومة تذكر حتى بلغ العاصمة نفسها حيث يقيم السلطان . وكان جوارنج منذ بلغته أنباء تقدم رابح يرتعد خوفا من ملاقاة ذلك القائد الغاضب فما كاد يعلم بقرب وصوله إلى عاصمته حتى أحرقها وانسحب منها مولياً الادبار نحو الجنوب ليلتقى بسادته من الفرنسيين الذين

تعهدوا بحمايته . وهكذا دخل رابح ماسينيا عاصمة الباجورميين منتصراً فاتحاً دون أن يخسر واحداً من رجاله وسقطت فى يده تلك المملكة الواسعة التى ظن الفرنسيون أنها قد أصبحت ملكا لهم لأن سلطاناً خائناً ضعيفاً رضى أن يفتح لهم أبوابها على مصاريعها ..

وكانت هذه هى الأنباء السيئة التى بلغت فرنسا وهى ما زالت تحتفل ببطلها جنتيل لما قام به من انتصارات موهومة فى حوض نهر شارى ..

* * *

ما كادت أنباء تقدم رابح واحتلاله للباجورمى تبلغ فرنسا حتى هب المسيو « جيلان » وزير المستعمرات الفرنسية لاتخاذ الاجراءات الحاسمة والاحتياطات اللازمة للدخول مع رابح فى معارك واضحة صريحة تقرر مصير تلك البلاد نهائياً .

وكانت الحكومة الفرنسية قد سبق لها أن عينت عند وصول جنتيل إلى فرنسا ضابطاً بحريا يدعى بريتونيه Bre:onnet ليحل محله فى الإدارة طوال مدة غيابه . ولكن ما كاد الموقف يتطور على ذلك النحو حتى صدرت الأوامر إلى جنتيل بقطع إجازته والعودة إلى منطقة نهر شارى لمعاونة السلطان جوارنج .

وأبحر جنتيل من فرنسا فى ١٥ فبراير ١٨٩٩ قاصداً برازافيل قبل فى الكونغو الفرنسية فبلغها فى ٣٠ مارس ومن هناك بدأ

تقدمه نحو نهر شارى وكان الوقت هو موسم الأمطار التى بدأت تتساقط فى غزارة وجعلت نقل القوات والمهمات بوساطة البواخر النهرية عملا محفوفا بالمخاطر والمشقات . وهكذا اضطر جنتيل إلى التقدم ببطء حتى بلغ أعالى نهر جريبنجى حيث وصلته رسالة من الملازم بريتونييه الذى كان يعسكر بقواته فى بلدة «كونو» يشرح له فيها الحالة السياسية وكيف أن وصوله قد أنعش الأمل فى قلوب أهالى الباجورمى ثم يختمها بذكر ما يشاع من أن رابحاً قد بدأ يتحرك لمهاجمته فى كونو بالرغم من أنه هو نفسه لا يتوقع أن يجرؤ رابح على القيام بمجازفة كهذه . !

كان من الواضح أن بريتونييه هذا ، وهو الحديث العهد بتلك المناطق ، لم يكن يعرف عن رابح وعن حقيقة قوته ما يعرفه جنتيل على الأقل الذى كان قد سبق له أن زار تلك المناطق وألم بأحوالها لذا فبالرغم من الاستخفاف البادى فى رسالته إلى جنتيل لم يتردد الأخير فى أن يسارع بإرسال ٢٠٠ شحنة من الذخيرة إليه مع ثلاث مدافع ليستطيع بها أن يواجه الموقف .

وبدأت الأنباء بعد ذلك تتوالى على جنتيل تنبىء بخطورة الحالة وباقتراب هجوم رابح على قوات بريتونييه الذى لم يحرك مع ذلك ساكنا برغم خطورة مركزه الواضحة مما دل مرة أخرى على أنه يفتقر إلى المقدرة على تقدير الموقف تقديراً سليما .. ولقد

وضح هذا جليا مرة ثانية فى رسائله التى بعثها إلى جنتيل والملازم جوليان [1] تفيض بالاستخفاف برابح وقواته التى قدر استطاعته حصدها حصدا دون جهد أو مشقة ، ولعل من الضرورى هنا أن نسوق إلى القارئ نص هذه الرسائل لما لها من الأهمية فى القاء الضوء على المعركة التى دارت بعد ذلك والتى كانت كفيلة بأن تعلم بريتونيه درسا ينفعه طوال حياته لولا أنه فقد فيها هذه الحياة نفسها ثمناً لاستهتاره واستخفافه بالقائد الذى دوخ القوات الفرنسية على نحو لم يفعله أى قائد آخر فى أفريقيا .

كتب بريتونيه لجنتيل يقول « لقد بادرت بابلاغك اننا قد نظمنا أربعة وأربعين من جنود الميليشيا وعشرين من الباكونجو المسلحين مع أربعمائة من الباجورميين ببنادقهم . وبفضل باقى أسلحتنا داخل الحصن يمكننا أن نكبد العدو خسائر جسيمة . وإنى أعتمد أيضاً على الدفاع مع التقهقر ، وسوف نهاجم باكرا ونحن فى موقع حصين للدفاع . وسواء انضم إلينا جوليان برجاله أو لم ينضم فاننا فى حالة تمكننا من رد العدو على أعقابه ... » [2]

كما كتب لجوليان نفسه يقول : « إن رابحا لا يملك بنادق

---

(١) ملازم فرنسى وقائد فصيلة من الجنود الفرنسيين كان عليها أن تتقدم لنجدة بريتونيه .

(٢) كتاب « سقوط امبراطورية رابح » — لمؤلفه اميل جنتيل ص ١٢١

إلا من طراز ضغط الهواء وقليلا من البارود والخرطوش المعاد صنعه وبعضا من القنابل الحديد فهو لا يقوى على الاحتمال.. »

أما جنتيل فقد علق على هذه الرسائل بقوله « وا أسفاه .. لم كان كل هذا الاستخفاف بالعدو .! إن من الواضح أن بريتونيه لم يستخبر جيداً عن رابح فان كل ما ذكر من الاستعلامات غير حقيق ولا يمكن الأخذ به ... » ثم مضى فى تقدمه البطىء وقد انقطعت عنه أنباء بريتونيه تماماً ..

فقد كان رابح قد بدأ هجومه ..

***

ماكاد رابح يدق أبواب كونو حتى انسحب بريتونيه منها واحتل تلال تجباو الواقعة إلى الشرق من كونو وهى سلسلة من التلال يبلغ ارتفاعها من مائة إلى مائة وخمسين متراً عن سطح البحر وتقع فى وسط منطقة تقيم بها قبائل من الباجورميين .

وفى السابع عشر من يوليو عام ١٨٩٩ استلم رابح القيادة بنفسه وكانت قواته تتألف من عشرة آلاف رجل مسلحين إلى جوار سهامهم ورماحهم بنحو ألفين وسبعمائة بندقية ، ثم بدأ الهجوم على قوات بريتونيه التى كانت قد اختارت مواقعها الحصينة فوق تلال تجباو فى مهارة وعناية ..

حمل رابح الحملة الأولى على القوات الفرنسية ولكنه لم يلبث



مقتل بريتونيه في موقعة تجاو في أغسطس ١٨٩٩

أن ارتد عنها بعد أن كبدها حياة أحد ضباطها ويدعى الملازم براون الذى سقط قتيلا وأصاب بريتونيه نفسه إصابة خطيرة فى صدره اضطرته إلى أن يقود المعركة بعد ذلك وهو طريح فوق صندوق من الحديد ليشعر رجاله بالرغم من إصابته بوجوده بينهم .

وعاود رابح الهجوم مرة ثانية بعد أن جمع قواته من جديد وأمر الخيالة أن يترجلوا عن جيادهم التى كانت تعيقها الصخور عن التقدم ثم قذف بنصف جنوده فى المعركة وحمل على مواقع الفرنسيين حملة عنيفة زعزعت جناح القوات الباجورمية التى تولاها الذعر فولت الأدبار متخلية عن مواقعها فوق قمتين من قم التلال الحصينة . فى تلك اللحظة تقرر مصير المعركة فقد سارع رابح إلى احتلال هذه المواقع وبدأ يصلى قوات بريتونيه التى أصبحت بذلك فريسة سهلة وابلا من النيران الحاصدة فأبيد السنغاليون عن آخرهم وأصيب بريتونييه نفسه برصاصة قاتلة وعندما تقدم طابور من الاحتياطى تحت قيادة ضابط فرنسى يدعى « دوران أوتييه » لتغيير مصير المعركة حوصر هو الآخر وأبيد رجاله جميعاً ..

لم يبق بعد هذه الموقعة التى غنم فيها رابح مدافع بريتونيه الثلاثة والتى عرفت فيما بعد باسم « مذبحة تجبار » أحد من القوات الفرنسية على قيد الحياة سوى ثلاثة من الجنود السنغاليين كانت

جراحهم الخطيرة قد حالت دون تمكنهم من الفرار فسقطوا في الأسر ثم استطاع واحد منهم فيما بعد أن يتمكن من الهرب وأن يحمل إلى جنتيل أنباء تلك الهزيمة الساحقة.

وكان طبيعياً أن يتلقى جنتيل هذه الأنباء في ألم ووجيعة وأن ينشط بعدها إلى الإسراع في الانتقام من رابح حفظا لهيبته أمام الباجورميين على الأقل بعد أن أصابهم انتصار رابح باليأس، وزعزع من عزائمهم حتى بدأ الكثيرون منهم يسارعون بالانضمام إلى رابح ومهادنته الشيء الذي كان يرى فيه جنتيل تهديداً بالغاً لموقفه في تلك المناطق.

أسرع جنتيل بعد ذلك في تقدمه حتى بلغ بلدة «فورت أرشمبولت» الواقعة على بعد مائة ميل إلى الجنوب من كونو حيث كان رابح لا يزال مقيما بقواته، وشرع على الفور في تحصين البلدة وتكديس الأمتعة والمهمات بها استعدادا للخطوة التالية وإن كان لم ينس مع ذلك أن السنوسي ربما ظن هذه التحصينات موجهة ضده هو استعدادا للهجوم عليه من ناحية ودّاي فيكون هذا ايذانا بوقوع المتاعب بينه وبين السنوسي مرة ثانية. غير أن هذا الخطر المتوقع من ناحية السنوسي لم يلبث أن انقشع عند ما أرسل هذا الى جنتيل رسالة تعزية رقيقة لموت بريتونيه أكدت مرة جديدة ما بين الاثنين من مودة ووفاء . !

كانت فورت أرشمبولت كما قدمنا تقع على مبعدة مائة ميل من كونو وكان الطريق الموصل بينهما سهلا معبدا وليس فيه من عائق يمنع تقدم طوابير المشاة غير بحر صارا ومع ذلك فقد أخذ جنتيل يتم استعداداته فى عجلة ولهفة فلما فرغ من ذلك أصدر أوامره فى الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٩ للكابتن روبيللو Robillot بأن يتحرك فوراً نحو كونو لينتقم من رابح ويغسل عار الهزيمة عن سمعة فرنسا الحربية التى مرغت فى التراب فوق تلال تجباو . .

* * *

فى هذه الفترة جرت حادثة مقتل « فرديناند دى بيهاجل » Ferdinand de Behagle فى مدينة دكوة . .

وكان بيهاجل رجلا نحيفاً متوسط القامة تظهر على ملامحه القوة والنشاط وكان يعمل مندوبا لإحدى المؤسسات التجارية فى فرنسا تسمى « النقابة الفرنسية » فى بعثة لانشاء مراكز تجارية تابعة لها حول بحيرة تشاد وحوض نهر شارى .

وكان رابح فى عدائه للفرنسيين لا يسمح أبداً لذلك العداوة الجارفة أن تعمية عن مقتضيات الانسانية وحقوقها : فهو يفرق بين الجنود الفرنسيين الذين يقاتلهم بكل سلاح دفاعا عن وطنه ، وبين التجار الفرنسيين الذين يجوبون مملكته بقصـــد التجارة وحدها والمبادلة على محاصيل البلاد . فهؤلاء كانوا يلقون منه كل عناية وترحيب بالرغم من أنهم كانوا فى الواقع طلائع

الاستعمار وجواسيسه يتجولون فى أنحاء البلاد ، يجمعون المعلومات عن أحوال رابح وقواته لابلاغها بعد ذلك إلى جنتيل .

وكان من الواضح أن بيهاجل واحد من هؤلاء الجواسيس الذين يتسترون تحت ستار التجارة منذ أن التقى به جنتيل فى أعالى نهر شارى ووضع تحت تصرفه باخرته « ليون بلوت » ليستعين بها فى تنقلاته وفى التجسس لحسابه . وبالرغم من ذلك فانه ما كاد يصل إلى دكوة ، بعد أن شجعه على زيارتها ما لقيه من معاملة طيبة من عثمان شيكو حاكم كاسورى ، حتى استقبله رابح بنفسه مقابلة ودية أكد خلالها دى بيهاجل لمضيفه بأنه يشتغل بالتجارة وحدها وأنه لم يحضر إلى تلك البـــلاد إلا لدراسة منتجاتها والمبادلة عليها .

ويروى الدكتور ديكورس ، وجودفرى دى مومبينس فى كتابهما « رابح وعرب نهر شارى » صفحة ٢١ أن رابحاً أمر فى اليوم التالى لوصول دى بيهاجل إلى عاصمته ، وكان قد خصص له مسكناً فاخراً إلى جوار منزل أحد الرؤساء بالعاصمة وكان يدعى جبارة ، أمر ولديه فضل الله ومحمد نيانى ومعهما الفقيه حامد الكبير والفقيه حامد الصغير بأن يحملوا إلى بيهاجل أربعة صناديق من ريش النعام وأنياب الفيل هدية منه اليه وأن يزودوه بما يلزم لتموين قافلته من الحبوب والدقيق والدجاج والبيض

والأرز والزبد واللبن والخراف وغير ذلك دون أن يتقاضوه شيئاً من ثمنها . .

حدث هذا فى الوقت الذى كان فيه بريتونيية قد تقدم إلى كونو ليقتص من رابح لهجومه على السلطان جورانج وفى الوقت الذى كان فيه رابح يستعد للالتحام مع تلك القوات المتقدمة بتجهيز جيشه وجمع السلاح له . وعلم رابح أن دى بيهاجل يمتلك عدداً من البنادق فرغب فى شرائها ولكن بيهاجل رأى أن يستغل حاجة رابح إلى السلاح فرفع الثمن وغالى فيه غلوا فاحشا فافترقا فى ذلك اليوم وقد تكهرب بينهما الجو وإن كان هذا لم يمنع بيهاجل عما كان قد حصل عليه من التسهيلات والمزايا وبقيت له حرية التجول فى مدينة دكوة وإن كان قد منع من مغادرتها دون الحصول على إذن بذلك . .

وعاد رابح مرة أخرى يفاوض بيهاجل للحصول على السلاح وكأنما أراد الأخير أن يعاود استغلال الموقف للحصول على معلومات عن قوة رابح وخططه فلم يلبث أن نقل الحديث عن صفقة البنادق والناحية التجارية إلى الحديث عن الناحية السياسية فكشف بذلك عن حقيقة نواياه خصوصاً عند ما سأل رابح قائلا : « وما هى حدودك فى منطقة الباجورمى . ؟ »[1]

---

(١) كتاب حياة السلطان رابح — لمؤلفه جاسون دى جاريك . صفحة ١٠٢

وكان هذا السؤال بالإضافة إلى تصلب بيهاجل فى بيع البنادق لرابح كفيلا بأن يفتح عينى الأخير عن حقيقة الدور الذى يقوم به الجاسوس الفرنسى .. ولكنه أراد أن يمد له الحبل ليشنق به نفسه كما يقولون فمضى يستدرجه فى الحديث وعندئذ لم يتورع بيهاجل عن نقد أعمال رابح ضد السلطان جورانج الذى تحميه فرنسا وانذاره بأن القوات الفرنسية سوف تجعله يندم تماما على مهاجمته لحليف لها .

وكان رابح ، كما نعلم ، سريع الغضب فرأى فى هذا التدخل السياسى من رجل يعتبره مجرد تاجر لا شأن له بأمور السياسة خروجا عن مقتضيات موقف الحياد الذى يجب أن يقفه كما أن رفضه تقديم السلاح له فى تلك الفترة العصيبة يعد انحيازا واضحا منه إلى معسكر مواطنيه من الفرنسيين ففض الجلسة بأن أمر بالقبض على بيهاجل ومعاملته كواحد من الأعداء ومصادرة تجارته من الأسلحة والذخائر فاستنكر دى بيهاجل هذا العمل أشد الاستنكار وأخذ يسب حراسه .

كل هذه الأمور جرت على نحو طبيعى لا غرابة فيه . . فليس غريبا بحال ما أن يصادر أى جيش سلاحا يحتاج إليه ، وليس غريبا ورابح يستعد لمعركة عنيفة مع الفرنسيين أن يلقى القبض على واحـــد منهم يحاول أن يعطل مشروعاته فى الدفاع عن بلاده . إنما الغريب حقا أن يعتبر مؤرخو الغرب هذا التصرف الذى تلجأ

اليه كافة الجيوش والدول المحاربة حتى يومنا هذا موضعا للمؤاخذة ودليلا على قسوة رابح ووحشيته . !

غادر رابح بعد ذلك دكوة قاصدا كونو لقتال بريتونبيه تاركا بيهاجل فى حراسة ابنه فضل الله . ولم يكف بيهاجل فى أول أيامه فى الأسر عن الطعن فى أعمال رابح والتعريض به أمام من حوله من الرجال بل وتمادى أيضا فى السباب ناعتا رابح ورجاله بأنهم « كلاب أولاد كلاب وعبيد [1] » مما أثار عليه الرجال فعلا وملأهم سخطا وغضبا فما كاد رابح ينتصر على بريتونبيه كما قدمنا ويفرغ من إبادة القوات الفرنسية فى تجباو حتى أرسل إلى فضل الله أمرا باعدام بيهاجل الذى كانت هزيمة مواطنيه قد خففت من غلوائه فبدأ يحترم من حوله احتراما يخالطه الخوف والجبن .

وهكذا لقى بيهاجل مصرعه . .

إن هذه الحادثة ليست ذات دلالة خاصة فمثلها يحدث مئات المرات فى كافة الحروب ونحن لم نذكرها هنا بذلك التفصيل كمحاولة للدفاع عن موقف رابح فانه موقف طبيعى لا يحتاج فيما نرى إلى أى دفاع وانما لنهيء ذهن القارىء لتلك القسوة الحقيقية والهمجية البربرية التى ارتكبتها القوات الفرنسية فيما بعد عند ما علقت رأس رابح فوق حربة طويلة ومضت تمثل بجثته على صورة تتنافى وأبسط ما تدعيه فرنسا لنفسها من شرف ومدنية . .

---

(١) « سقوط امبراطورية رابح » لمؤلفه إميل جنتيل صفحة ٢٠٣

معركة كوينو

« الزحف على كونو ــ جيش رابح ــ المعركة تبدأ ــ الهجوم بالسلاح الأبيض ــ فداحة الخسائر بين العسكرين ــ توقف القتال ــ جنتيل يصف المعركة ــ تقهقر الفريقين » .

ذكرنا فى الفصل السابق أن جنتيل أصدر أوامره فى الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٩ بالزحف على كونو لهدفين : أولهما الانتقام لضحايا معركة تجباو واستعادة هيبة الفرنسيين فى تلك البقاع والثانى فتح الطريق إلى بحيرة تشاد التى اتفق على أن تكون مكانا لتلاقى جنتيل مع الحملة المرسلة عن طريق منطقة السودان الوسطى تحت قيادة الكابتن فوليه Voulet والأخرى القادمة من بلاد الجزائر تحت قيادة القومندان لامى حتى تستطيع الحملات الثلاث بتكتلها وتوحيد جهودها القضاء على رابح نهائياً .

رتب جنتيل زحفه على كونو بحيث تسير طوابير المشاة بجوار نهر شارى حتى تتمكن من أن تعسكر مع القوات التى تحملها السفن النهرية فى مكان واحد لتأمن هجوم العدو . ومع ذلك فقد اصطدم

جنتيل فى زحفه هذا بكثير من العقبات فان ما كان يخشاه من انضمام الباجورميين إلى رابح قد حدث على صور متعددة أشعرته دائماً بأنه يسير فى منطقة معادية وبين أناس لا يرحبون به ، فقد أخذ المرشدون الذين كانوا من بين الباجورميين يهجرون معسكره للانضمام إلى رابح كما كان الذين يقبلون الخدمة معه بدلا من هؤلاء الهاربين لا يلبثون هم أيضاً أن يفروا منه حاملين أنباء قواته وتحركاته إلى معسكر عدوه رابح .

وعلى هذا النحو الشاق مضى زحف جنتيل نحو كونو حتى أصبح على مبعدة نحو عشرين ميلا من معسكر رابح أمام تلال تجباو حيث طالعته الهياكل العظمية ، والجماجم المتناثرة والصناديق الخشبية المهشمة وخراطيش الرصاص الفارغة وغير ذلك من بقايا المعركة المخيفة التى دارت فى ذلك المكان منذ شهور ثلاثة ، والذى كان على جنتيل مع ذلك أن يقضى به الليلة التى تسبق العاصفة .

فلما كان الصباح تقدم جنتيل بسفينته حتى أصبح على مرمى البصر من قوات رابح ثم بدأ تحت سمع تلك القوات وبصرها فى إنزال مدافعه الثلاثة إلى البر دون أن تتعرض هى له أو تحس بوجوده فقد ظن رابح عند ما رأى السفينة ترسو بمفردها بأن من عليها هم كل القوة الفرنسية ولم يتنبه إلى وجود القوات البرية الأخرى التى كان وصولها قد تأخر قليلا لأنها سلكت طريقاً

آخر تملؤه الأعشاب غير الطريق المعتاد . وبهذا السكوت والصمت أتاح رابح لعدوه وقتاً كافياً أعد فيه قواته واختار لمدافعه مواقع ملائمة تماماً .

وكانت قوات رابح تتألف من وحدات متعددة كل واحدة منها تسمى « البيرق » وعلى رأس كل بيرق رئيس يميزه ثوبه الأبيض وعمامته البيضاء وحزام الجلد المعد للخرطوش الذى يحيط بصدره . أما القوات الفرنسية فقد كانت تتألف تحت قيادة روبيللو من ثلاث فرق جعل الأولى فى المقدمة على شكل مدرجات وتليها الثانية بينما تؤلف الثالثة الاحتياطى الذى يحمى المؤخرة . وكان لرابح سفينتان الأولى تحت قيادة عثمان شيكو حاكم مدينة كونو والأخرى عليها مدفع أعد لمجاوبة نيران الفرنسيين بينما احتفظ بالمدفعين الآخرين ليصد بهما زحف المشاة وكانت هذه المدافع الثلاثة من بين غنائمه فى معركة تجباو كما ذكرنا سابقاً .

وبدأت المعركة أولا بتبادل قذائف المدفعية وطلقات الرصاص بين المعسكرين اللذين كانت تفصلهما مسافة تبلغ حوالى الخمسمائة متر . ولم تلبث فرقة الرماة فى جيش رابح أن تسلقت الأشجار وبدأت تتصيد القوات الزاحفة بسهامها ورصاص بنادقها مما كبد الفرنسيين خسائر جسيمة فى الوقت الذى كانت فيه فرقة

أخرى من الرماة قد تحصنت فى خنادقها عند ميسرة الجيش وراحت تجيب بنيرانها على طلقات الرصاص التى كانت تنبعث من مؤخرة القوات الفرنسية وبهذا تمكن رابح من أن يحصر مقدمة العدو ومؤخرته بين وابل من نيران هؤلاء الرماة المدربين ممن يجيدون التصويب وإصابة الهدف من بعيد .

وبالرغم من أن مدافع الفرنسيين حاولت أن تجيب على هذا الحصار باطلاق قذائفها فى عنف وشدة إلا أن ذلك لم يدم طويلا . فإن خطة رابح تلك كانت قد استطاعت فى وقت قصير أن تهز صفوف الأعداء بالكثير من القتلى والجرحى بينما مضت مدفعيته هى الأخرى التى لم تكن مهارة رجالها فى إصابة الهدف بأقل من مهارة إخوانهم الرماة تصلى معسكر الفرنسيين ناراً حامية مما اضطر الكابتن روبيللو فى النهاية إلى إصدار الأوامر إلى مدفعيته بالكف عن الضرب لتتيح الفرصة للمشاة أن يتقدموا بالسونكى ليلتحموا برجال رابح المحصنين فى الخنادق بعد أن أصبح مثل هذا الالتحام ضروريا لتجنب مزيد من الخسائر بفعل الرماة .

وكانت موجة الهجوم بالسلاح الأبيض شديدة الوطأة على قوات رابح التى اضطرت عندئذ إلى ترك خنادقها والتقهقر نحو المدينة . وواصل الفرنسيون الهجوم على القوات المتقهقرة حتى بلغوا المساكن المصنوعة من القش فاشعلوا فيها النيران التى راحت



القوات الفرنسية تتساقط قتيلة أمام أسوار كونو

تمتد فى سرعة من بيت إلى بيت بينما أخذت الحيوانات من الخيول والمواشى تفر مذعورة هنا وهناك مما زاد من هول المعركة وقد اختلطت فيها رائحة البارود برائحة اللحم المشوى وأزيز الرصاص وقصف المدافع بصياح النساء والأطفال ممن أحاطتهم النيران من كل جانب، وتصاعد فى الجو مع إنات الجرحى والمصابين صهيل الحيوانات المذعورة الخائفة .

ومضى القتال فى عنف متزايد حتى بلغ منطقة من المدينة حيث استطاعت قوات رابح أن تقيم سوراً من جذوع الأشجار تحصنت خلفه ومضت تصب نيرانها على الأعداء يعاونها أحد المدافع الذى اتخذ من سفينة جنتيل ذاتها هدفاً له .

وعندما انتصف النهار كان بعض الرماة فى جيش رابح قد استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى قلعة فى شمال المدينة تشرف على مواقع الفرنسيين ومن هناك استأنفوا تصويب سهامهم ورصاص بنادقهم على القوات المهاجمة بينما ظهرت فى النهر بعض السفن الصغيرة التى راحت هى الأخرى تتبادل النيران مع سفن جنتيل بالرغم من أن المدافع المنصوبة فوقها استطاعت أن تحصد منهم عدداً وافراً وكان من بين من سقطوا من القتلى عثمان شيكو نفسه .

لم يلبث القتال بعد ذلك أن فقد بعض حدته ريثما تتزود قوات المعسكرين بذخيرة جديدة ثم استؤنف مرة أخرى أشد ما يكون

عنفاً وإصراراً ، ودفع روبيللو بالقوات الاحتياطية فى المعركة بعد أن أصيبت الفرقتان الأولى والثانية بخسائر فادحة . وكان رابح ما زال محتفظا بموقعه بوسط المدينة وحوله المئات من رجاله الذين قرروا ألا يتخلوا عن نصرة قائدهم إلا بعد أن تسفك آخر قطرة من دمائهم .

وتقدم المارشال « بوسيل دى ديبه Possel-Deydier » على رأس فرقته محاولا الانقاض على هؤلاء الجبابرة فقتل . وحل محله الملازم جولاندو ولكن صفوفه لم تلبث أن تراجعت لتحتمى بمساكن القش الباقية فتقدم عندئذ الكابتن جوليان بفصيلته ولكنه لم يستطع هو الآخر بعد قتال عاصف استمر ثلاث ساعات أن يزحزح رابحاً عن موقفه وإن كان قد تمكن من منعه من الاتصال بباقى قواته أو انضمام أحد من رجاله إليه .

وعندما بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر كان القتال المرير الذى استغرق ثمانى ساعات طويلة قد هد قوى الفريقين واستنزف كل مافى طاقة البشر من جهد . وكانت الخسائر فى المعسكرين على السواء من القتلى والجرحى قد بلغت رقماً مخيفاً : فقد فقد رابح عدداً من خيرة قواته ورؤساء جيشه الذين كان يحبهم ويعتز بهم مثل عثمان شيكو والفقى أحمد وبو باكر بينما خسر جنتيل هو الآخر نخبة من أشجع ضباطه كما جرح قائده روبيللو جرحاً بالغاً هذا

غير المئات من الجرحى الذين اكتظت بهم سفينته وما أصاب مدفعيته من خسارة بالغة فى الرجال والعتاد حتى لقد تلف أكثر مدافعه وأصبحت غير صالحة للاستعمال بعد ذلك .

أمام هذه الخسائر الجسيمة كان لابد أن يتوقف القتال وأن تنتهى المعركة دون أن تؤدى إلى نتيجة حاسمة لصالح أى من الفريقين . ولقد كتب جنتيل بعد ذلك يقول فى معرض التحدث عن تلك المعركة الرهيبة :

« . . أما موقعة كونو فقد كانت من أفظع المعارك التى خضناها . ومازلت أذكر حتى اليوم عند ما جن الليل ولهب الحرائق ما زال يلتهم المساكن ويصبغ الأفق بلون الدم بينما خيم علينا سكون ثقيل لم يكن يقطعه بين الفينة والأخرى سوى أنين الجرحى ونحيب الأحياء وهم يبكون موتاهم .

« ولقد حاولنا ليلتها أن نتناول الطعام ولكن التعب كان أشد ألماً من الجوع وكان النعاس يغالبنا فى إصرار حتى غلبنا أخيرا فنمنا نوماً عميقاً حتى اليوم الثانى واستيقظنا فى الصباح مبكرين ولم يكن فى حوزتنا غير مدفعين صالحين للاستعمال وذخيرة لا تكاد تكفى لأكثر من ستين خرطوشة لكل رجل . أما المؤونة فكانت قد أوشكت على النفاذ ولم يعد لدينا منها ما يكفى لغير أربعة أيام فقط بينما تكدس الجرحى فى الباخرة

وأصبحت السفن الأخرى فى حاجة إلى إصلاح عاجل .

« لكل هذه الأسباب قررت التقهقر والعودة إلى بلدة فورت ارشمبولت التى بدأنا منها زحفنا . . »[1]

* * *

قرر جنتيل اذن أن يتراجع عن كونو ليضمد ما أصاب قواته من جراح فى المعركة التى التهمت عدداً كبيراً من الضحايا دون أن تؤدى إلى نتيجة حاسمة فى ذلك الصراع الذى يضطلع به ضد رابح . وبالرغم من أن تلك الحقيقة كان يدل عليها فعلا انسحابه هذا إلا أنه استطاع مع ذلك أن يخدع الباجورميين من أهالى تلك البلاد وأن يظهر أمامهم بمظهر القـــوى المنتصر ليرفع بذلك من روحهم المعنوية ويكسبهم فى صفه من جديد . ولقد نجح فعلا فى ذلك حتى لنرى هؤلاء أقل عداء له فى تقهقره عن كونو منهم أثناء تقدمه نحوها ، كما نرى أيضاً سلطانهم جوارنج الذى كان لايزال يسوقه الأمل فى أن يعيده الفرنسيون إلى عرشه يعاود الاتصال به عارضاً المزيد من صور صداقته له مقدما اليه ما يحتاجه من المؤن والتسهيلات . وكان هذا فى الواقع هو كل ما استطاع جنتيل أن يكسبه من معركة كونو وهو كسب استطاع أن يتعزى به عن النصر الحاسم الذى كان يحلم بأن يحوزه ضد رابح . .

---

(١) «كتاب سقوط امبراطورية رابح» لمؤلفه إميل جنتيل صفحة ١٦٣ — ١٦٤

أما رابح فان موقفه لم يكن أقل سوءا من موقف خصمه .. كانت كونو قد استحالت إلى كومة من الخرائب والأنقاض ففقدت بذلك أهميتها كقاعدة لقواته . كما كان هو فى حاجة إلى الارتداد نحو قواعده فى الشمال حتى يستطيع أن يستعد للجولة الثانية استعداداً يتلاءم مع قوة العدو الذى يناضله . لذا فانه لم تكد تمضى أيام قليلة على انسحاب جنتيل حتى شرع هو بدوره فى نقل جرحاه عن طريق النهر والرجوع بجيشه إلى لوجون ودكوة بالرغم من أن ذلك العمل قد ترك نهر شارى فى الواقع تحت سيطرة جنتيل تماماً كما أتاح للأخير فرصة التقدم بسهولة نحو بحيرة تشاد حيث كان قد تقرر أن يلتقى بالحملات الأخرى التى بدأت تتحرك وتتجمع لمواجهة رابح فى معركة أخيرة ..

ثلاث حملات ضد رابح

« حملة جنتيل ـ الحملة الافريقية ـ الحملة الصحراوية ـ كاسورى تسقط ـ جنتيل ينضم إلى حملة لامى ـ الخيانة تتحالف مع أعداء رابح ـ الشيخ عمر . »

سبق أن قدمنا فى الفصول السابقة كيف أن الحكومة الفرنسية ما كادت تبلغها أنباء المعارك التى شنها رابح ضد حليفها سلطان الباجورمى ، وهى المعارك التى رأيناها تنتهى باحتلال رابح لعاصمة تلك الولاية وتتمخض عن تأديب للقبائل التى تحالفت مع جنتيل أثناء رحلته الأولى فى تلك البلاد ، حتى فزعت من وجود تلك القوة النامية وتحققت من خطرها على مشروعاتها الاستعمارية فى وسط أفريقيا وقررت القضاء عليها قضاء نهائيا فى حرب سافرة قبل أن يزداد خطرها أو تتشعب أطماع ذلك القائد فيعمل بعد أن استتب له الأمر فى تلك الامبراطورية الواسعة التى تشمل عدداً من الولايات الهامة الغنية على الوثوب على مستعمرات فرنسا نفسها فى تلك المنطقة واخضاعها لنفوذه .

لهذا كانت حملة جنتيل ، أو حملة نهر شارى كما عرفت بذلك

فيما بعد لتميزها عن باقى الحملات التى شاركت فى القضاء على رابح .. ولقد رأينا تلك الحملة تصطدم مع رابح فى معركتى تجباو وكونو وهما من أعنف المعارك التى خاضها الاستعمار الفرنسى فى أفريقيا، باستثناء معاركه فى الجزائر وتونس، والتى أبيد فيها الكثير من قواته دون أن يستطيع مع ذلك أن يحسم الأمر على صورة واضحة. ولعل الحكومة الفرنسية كانت تظن أن القضاء على رابح لن يعدو أن يكون نزهة حربية ممتعة يتسلى فيها جنتيل بمدافعه وبواخره النهرية باصطياد المواطنين البدائيين، وأن هؤلاء لن يكادوا يرون أقدام الاستعمار تطأ بلادهم حتى يخروا أمامها ساجدين مرحبين. والواقع أن الخيانات التى ارتكبها كل من السنوسى والسلطان جورانج وتحالفهم مع جواسيس الاستعمار ثم ارسالهم مندوبين عنهم إلى فرنسا، كل ذلك قد شجع ولا شك وزارة المستعمرات فى باريس على أن تظن أن القضاء على رابح فى مثل تلك الظروف لن يكلفها كثيراً ..

ولكنه كلفها كما رأينا .. ولم يكن المسئولون فى فرنسا فى حاجة بعد ذلك إلى وقت طويل ليدركوا أن حملة نهر شارى وحدها لن تستطيع أن تخلصهم من رابح. بل إن هذه الحملة نفسها لو تركت وحدها لتواجه عدوهم فإنها لن تلبث أن تبيد بعد معركتين أو ثلاث .

أمام تطور الأمور على ذلك النحو كان طبيعياً أن تصدر الأوامر إلى القوات الفرنسية بالسودان الوسطى بالتقدم صوب بحيرة تشاد للانضمام إلى حملة جنتيل ومعاونتها فى مهمتها فى الوقت الذى كانت فيه حملة أخرى سميت فيما بعد باسم الحملة الصحراوية تتقدم من بلاد الجزائر تحت قيادة ضابط فرنسى يدعى لامى للمشاركة فى نفس الغرض .

وهكذا اجتمعت ضد رابح حملات ثلاث . !

* * *

والآن .. كيف التقت هذه القوات المتفرقة فى بلدة كاسورى حيث دارت بعد ذلك المعركة الفاصلة ؟ .

بدأت الحملة القادمة من السودان الوسطى ، والتى عرفت باسم الحملة الافريقية ، سيرها من بلدة « ساى » ، وقد أسندت قيادتها إلى ضابط فرنسى يدعى « جوستاف قوليه » . غير أنها لم تكد تتقدم فى زحفها قليلا حتى بلغ السلطات الفرنسية أن جوستاف قوليه هذا قد ارتكب أعمالا فظيعة لا مبرر لها أثناء تقدمه فصدرت الأوامر بعزله عن قيادة الحملة وتعيين « الكولونيل كاوب » بدلا منه . ولكن قوليه ما كاد يبلغه نبأ عزله حتى أقصى عن الحملة سائر الضباط المناوئين له بأن أعادهم إلى بلدة «ساى» ثم تقدم على رأس حملة البنادق لملاقاة القائد الجديد . ودارت بين الاثنين

معركة قصيرة انتهت بمقتل كلوب ولكن قوات قوليه لم تلبث بعد ذلك أن تمردت عليه وقتلته هو الآخر وانضمت إلى الملازم «باليه» الذى أعاد الأمور إلى نصابها وقضى على حركة التمرد والعصيان التى كادت تعطل مهمة الحملة الأساسية .

بعد ذلك تابعت الحملة زحفها من جديد تحت قيادة الملازم جولاند الذى أسرع فى اتجاه بحيرة تشاد حتى بلغ حدود مدينة «جولنى» قبل أن يحس بمقدمه أحد ومن هناك أرسل إلى جنتيل فى قاعدته بفورت ارشمبولت أحد ضباطه ينبئه بوصوله . وكان جنتيل فى ذلك الوقت قد استطاع أن يتفق مع السلطان جورانج على أن يحصل منه على الحمالين ودواب النقل اللازمة لحمل المئونة والذخائر فلما جاءته أنباء وصول «جولاند» وكان قد فرغ من تجميع الذخائر والأسلحة اللازمة لحملته بدأ سيره فى ١٣ مارس ١٩٠٠ من بلدة فورت ارشمبولت متجها نحو الشمال للإلتقاء به وبقوات لامى التى كانت قد بلغت عندئذ إقليم كانم شرقى بحيرة تشاد .

ولم يكن تقدم جنتيل سهلا هذه المرة أيضا . . فقد تعاونت ضده عناصر الطبيعة العاضبة كما كان نقل المؤن والذخائر يجرى على صورة بطيئة مملة نتيجة لسوء حالة الحمالين الذين قدمهم جورانج وضعف الدواب المستعملة فى هذا الغرض .

وبينما مضى جنتيل يتقدم نحو الشمال على هذا النحو الشاق

كان لامى قد تابع تقدمه حتى التقى بالحملة الأفريقية بالقرب من جولفى حيث كان يقيم فضل الله وتحت امرته حوالى الألف رجل تبلغ عدة سلاحهم نحو ستمائة بندقية .

وحاول لامى أن يستولى على جولفى ولكن المناوشات الأولى التى دارت بينه وبين فضل الله لم تلبث أن كشفت له عن صعوبة ذلك الهدف . فقرر الزحف على كاسورى الواقعة إلى الجنوب منها واحتلالها حتى يستطيع بذلك أن يقطع خطوط مواصلات فضل الله بقاعدة الجيش فى دكوة ويضطره إلى إخلاء مدينة جولفى .

ولم تقاوم كاسورى مقاومة جدية .. ونجحت خطة لامى : فان فضل الله لم يلبث أن اكتشف خطورة مركزه بعد سقوط كسورى التى تتحكم فى خطوط تموينه ومواصلاته فى يد الأعداء فشرع فى الإنسحاب من جولفى والاتجاه إلى لوجون جنوبى كاسورى. وفى طريق انسحابه عسكر بعض الوقت تجاه كاسورى وعلى مبعدة خمسة أميال منها بقصد التربص بدوريات الفرنسيين ومنعها من ارتياد ما حولها من المناطق أو جمع المعلومات عن رابح وقواته ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً كلف الأعداء كثيراً من الرجال والعتاد وأشعرهم بأنهم محاصرون فعلا فى ذلك الموقع الاستراتيجى الهام .

وكان رابح فى عاصمته دكوة عندما بلغته كل هذه الأحداث

المتلاحقة السريعة التى لم تفلح بالرغم من تتابعها على هذا النحو العاصف فى أن تفاجئه أو تأخذه على حين غرة . فقد كان منذ أن جرت موقعة كونو يتوقع أن يعاود الفرنسيون الهجوم عليه ولذلك لم يكف من يومها لحظة واحدة عن الاستعداد للجولة الثانية بتجميع قواته وتنظيم صفوفها وجلب الأسلحة والذخائر لها . فما كاد يعلم بسقوط كاسورى حتى غادر بجيشه العاصمة واتجه لحصار لامى بها .

والواقع أن إسراع رابح لملاقاة لامى كان عملا بارعاً تماماً . فقد كانت خطة رابح أن يفرغ من لامى قبل أن تنضم اليه قوات جنتيل . ولكن هذا العمل لم يلبث أن فقد أهميته عندما اقتصر رابح فى حصاره لكاسورى على ناحية البر وعدم إسراعه باقتحامها بعد ذلك وبهذا أضاع وقتا ثمينا وأتاح الفرصة لجنتيل لأن يصل عن طريق النهر بامداداته وذخائره وخبرته إلى البلدة التى كان قد تكدس بها رجال بلا عتاد أو مؤن أو أى معلومات عن عدوهم الذى يقاتلونه .

ooo

بلغ جنتيل فى تقدمه بلدة «بوجومان» فى ١٥ ابريل ١٩٠٠ فوجد فى انتظاره الرسالة التالية من لامى يشرح له فيها الموقف فى تلك الفترة الحاسمة :



فرسان رابح تقتحم مواقع الفرنسيين

• طلبت إلىّ أن أرسل اليكم قوة لملاقاتكم فى بوجومان يوم ١٥ إبريل ١٩٠٠ ولكن لما كان ميدان كاسورى يعتبر فى الحالة الراهنة فى حالة حصار فانه من الممنوع ابتعاد الدوريات إلى مسافات تتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مترا بعيداً عن الميدان خصوصاً بعد أن هوجمنا أمس وأول أمس . وموقع هذه المدينة من الطراز الأول من الوجهة الاستراتيجية ويجب أن نختارها قاعدة لعملياتنا لأنها تسيطر فى الوقت نفسه على نهر شارى ومواقع لوجون وكرنك وجولفى ودكوة . وقد كان فى الإمكان فى ١٠ مارس الماضى الاستيلاء على بلدة لوجون إذا أردنا ولكن العائق الأكبر الذى منعنا من ذلك هو خوفى من تجزئة البعثتين التابعتين لى . ولقد بلغنى صباح اليوم من الانباء ما يفيد بأن مثل هذه المأمورية قد أضحت مستحيلة فى الوقت الراهن وان تكتل قواتنا واجتماعها فى جبهة واحدة قد أصبح الآن من ألزم الأمور فان رأيى لما علم بقرب مجيئكم رأى أن يترك معسكره فى بلدة «كالاموليه» Kala-Moulé وأن يستدير نحو كاسورى من الغرب بعد أن انضمت اليه قواته فى كرنك ولوجون ووجهته بعد ذلك من غير شك هى تطويقنا من الضفة الشمالية لنهر شارى : وإن المناوشات التى حدثت فى الأيام الثلاثة الماضية تحت أسوار بلدة كاسورى بيننا وبين

رابح كان الغرض منها هو إخراجنا من هذا الموقع وتعريضنا للوقوع في كمين مما يؤيد كل استنتاجاتي بخصوص خطة رابح . . »[1]

كان هذا في الواقع هو مجمل الموقف في جبهة كاسورى . وكان رابح عندما بعث لامى بتقريره هذا مشغولا باقامة خط دفاعى في شمال غرب المنطقة لكى يقيم معسكره في أمان وإن كان هذا لم يمنعه من مناوشة القوات المحاصرة في كاسورى مرسلا فرسانه لتصيد دورياتهم وتكبيدها الخسائر في الأرواح والمهمات مما جعل لامى يحس بأن الحالة التى يواجهها خطيرة جداً وأن أقل خطأ يرتكبه قد يجر عليه من النتائج والأحداث مالا يعلم أحد مداه .

أسرع جنتيل عندما تسلم تقرير لامى وأطلع على حرج مركزه بالتقدم للحاق به من قبل أن يبدأ رابح هجومه . ولكن موقف جنتيل لم يكن هو الآخر خاليا من الخطورة فقد كان عليه لكى يبلغ كاسورى أن يمر ببلدة « موليه » المواجهة للوجون حيث يعسكر فضل الله بقواته وكان هذا قد عرف بتقدم جنتيل فأقام دوارية من الفرسان على النهر لرصد موعد وصوله .

ولكن الحظ ساعد جنتيل هذه المرة . . فقد تصادف عند وصوله إلى تلك البلدة ان التقت دوارية فضل الله بجماعة من الباجورميين المعسكرين على الشاطىء الأيسر من النهر فانشغلت

(١) «سقوط امبراطورية رابح» ـ لمؤلفه إميل جنتيل صفحة ٢٠٠

بمطاردتها وتشتيتها وغفلت بذلك عن قوات جنتيل التى استطاعت مستعينة بالظلام والأعشاب الكثيفة النامية على شاطىء النهر أن تتقدم دون أن يلحظ تقدمها أحد من رجال فضل الله .

ولقد كان ذلك الخطأ الصغير الذى وقعت فيه داورية فضل الله ، والذى مكن جنتيل من التسلل فى سهولة ويسر من أهم الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة الهامة فقد استطاع بعدها جنتيل أن يمضى فى تقدمه دون أن يخشى شيئاً وأن يبلغ مدينة كاسورى فى سلام فينضم إلى قوات لامى بها وبذلك اجتمعت فى تلك المدينة الهامة الحملات الثلاث التى أقبلت من جهات عدة متفرقة بالرغم من كل ما صادفها من عقبات .

ولعل خيانات السلطان جورانج وشبيهه الشيخ عمر سندا أكبر أبناء السلطان هاشم حاكم بورنو السابق والذى كان يطمع فى استرداد مملكة أبيه من رابح .. هذه الخيانات هى التى لعبت الدور الأول فى إتمام ذلك الحدث الذى اعتبره جنتيل شيئا لم يسبق حصوله من قبل فى تاريخ حركة الاستعمار فى أواسط أفريقيا ، وفى تسهيل تجمع تلك القوات الطائلة أكثر مما لعبه العزم والتصميم من جانب القوات الفرنسية . والواقع أن رابحا لم يقف ضد الاستعمار الفرنسى فقط ولم يحارب مطامع الغزو الأجنبى فحسب وإنما حارب أيضا ووقف ضد مطامع اثنين من السلاطين لم يكن

يهمهم من شئون بلادهم وهى تتعرض لمحنة الاستعمار الكبرى سوى أن تتاح لهم الفرصة للجلوس ثانيا على عروشهم مهما كلفتهم هذه الفرصة من ثمن . وفى سبيل تحقيق ذلك الهدف لم يتردد واحد منهم فى أن يضع نفسه ورجاله فى خدمة الغزاة الأجانب وأن ينصر جيشا دخيلا على جيش رابح دون نظر إلى مصلحة الأهالى أو إلى مستقبل عرشه نفسه الذى كان انتصار القوات الفرنسية يعنى فى الواقع ضياعه إلى الأبد . .

ولعل القارىء الذى تتبع معنا فى الصفحات السابقة المساعدات التى كان يبذلها السلطان عبدالرحمن جورانج لمساعدة جنتيل وتزويده خلال زحفه الطويل بالمؤن والرجال، لعله أن يسأل: هل كانت عودة ذلك السلطان الضعيف الخائن الذى أحرق عاصمته بيديه وشرد مواطنيه ومكن الأجانب من رقابهم إلى عرش الباجورمى ثانيا تعنى بالنسبة لسكان تلك المناطق حكما أصلح وعدالة أكثر استقرارا من حكم رابح وعدالته . ؟

لا مراء فى أن الاجابة على تساؤل كهذا بعد أن شهدنا من خيانات ذلك السلطان الشيء الكثير لن تكون عسيرة أو غامضة.. فان الحاكم الذى يستمد سلطانه من رماح الاستعمار ويسند عرشه على حرابهم يحكم على نفسه بأن يكون خادما لسادته الذين منحوه السلطان عدوا لأعدائهم حليفا لحلفائهم . . وهل عدو الاستعمار

يهمهم من شئون بلادهم وهى تتعرض لمحنة الاستعمار الكبرى سوى أن تتاح لهم الفرصة للجلوس ثانيا على عروشهم مهما كلفتهم هذه الفرصة من ثمن . وفى سبيل تحقيق ذلك الهدف لم يتردد واحد منهم فى أن يضع نفسه ورجاله فى خدمة الغزاة الأجانب وأن ينصر جيشا دخيلا على جيش رابح دون نظر إلى مصلحة الأهالى أو إلى مستقبل عرشه نفسه الذى كان انتصار القوات الفرنسية يعنى فى الواقع ضياعه إلى الأبد . .

ولعل القارىء الذى تتبع معنا فى الصفحات السابقة المساعدات التى كان يبذلها السلطان عبدالرحمن جورانج لمساعدة جنتيل وتزويده خلال زحفه الطويل بالمؤن والرجال، لعله أن يسأل: هل كانت عودة ذلك السلطان الضعيف الخائن الذى أحرق عاصمته بيديه وشرد مواطنيه ومكن الأجانب من رقابهم إلى عرش الباجورمى ثانيا تعنى بالنسبة لسكان تلك المناطق حكما أصلح وعدالة أكثر استقرارا من حكم رابح وعدالته . ؟

لا مراء فى أن الاجابة على تساؤل كهذا بعد أن شهدنا من خيانات ذلك السلطان الشىء الكثير لن تكون عسيرة أو غامضة.. فان الحاكم الذى يستمد سلطانه من رماح الاستعمار ويسند عرشه على حرابهم يحكم على نفسه بأن يكون خادما لسادته الذين منحوه السلطان عدوا لأعدائهم حليفا لحلفائهم . . وهل عدو الاستعمار

سوى الشعب نفسه ، الشعب الذى تسلب أقواته ويصلب أبناؤه وتقدم حياته قربانا للاستغلال والاستعباد . .

مثل هذا الحاكم الذى عرف الشرق من أمثاله الكثيرين لا يمكن اذن أن يدخل فى حسابه مصلحة شعبه ورفاهيته . فاذا قام رجل كرابح لا يستمد سلطانه إلا من إرادة شعبه ، ولا تحميه إلا الرماح التى تهزها سواعد رجاله ، إذا قام رجل كهذا عرف الشرق من أمثاله الكثيرين أيضا ليتصدى لمفاسد حاكم كهذا وما تجره على البلاد من بلاء الاستعمار فان التاريخ خليق بأن يحفظ له بالرغم مما قد يكون له من أخطاء أخرى مكانا ممتازا إلى جوار الأبطال الذين خلدهم كفاحهم من أجل حريات بلادهم وسلامتها . .

ولعل من أوقع ما يختتم به حديث كهذا من قبل أن نقدم للقراء فى الفصل القادم وصفا لنهاية رابح وانهيار امبراطوريته أن نقول إنه فى الليلة التى سبقت معركة كاسورى الفاصلة . . وفى الوقت الذى كانت فيه الاستعدادات فى المعسكرين المتناحرين تقوم على قدم وساق ، جلس السلطان جورانج بجسده الضخم وبثيابه الفاخرة يتقاسم مع الشيخ عمر ، ذلك الرجل القصير القامة الذى يرتدى دثارا بسيطا يتكون من جلباب وسروال من القماش الخفيف الصنع ويضع فى قدميه نعلا خفيفاً أصفر اللون وعلى رأسه طاقية بيضاء قذرة ، تركة رابح وكل همهما منها جموع النسوة التى سيخلفها رابح

من بعده والتى كان جورانج يحاول أن يستأثر بها مدخلا فى روع الشيخ أنه أقدر منه على إصلاح أمور النسوة وعلى القيام بواجباتهن.

ولم يكن من السهل طبعا أن يقتنع الشيخ عمر الذى قضى فترة طويلة بعيدا عن الحكم والسلطان مع زوجة واحدة تقدمت بها السن بأن السلطان جورانج أقدر منه على التنعم بمزايا النساء فطالت بينهما المناقشات والمفاوضات طوال الليل بينما انهمك جنتيل ولامى على مقربة منهما يضعان خطة المعركة لليوم التالى وبينما كان رابح فى المعسكر الآخر ساهرا بين رجاله يحثهم على الثبات ويذكرهم بما وعد الله به عباده المجاهدين والأحرار من النصر والثواب . .

انهيار امبراطورية رابح

« الاستعداد للمعركة ــ تفوق رابح ــ اصابة لامى ــ خطوط رابح تتداعى ــ موت لامى رصاصة فى القلب ــ جنتيل يرقى رابح ــ جهود فضل الله ــ انهيار امبراطورية رابح »

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٢ إبريل ١٩٠٠ اجتمعت قوات الحملات الثلاث الموضوعة تحت قيادة لامى خارج مدينة كاسورى لمهاجمة معسكر رابح . وكان رابح قد فرغ فى الليلة السابقة من تنظيم قواته على صورة مربع مدرج كشكل الهودج طول كل ضلع من أضلاعه ثمانمائة متر تحيط به مساحة من الأرض يبلغ ارتفاعها حوالى المتر تقريباً تقوم مقام الحصن لحماية مشاته من رصاص الأعداء . أما لامى فكان قد قسم قواته إلى فرق ثلاث : الأولى وتتكون من جنود البعثة الصحراوية وقد وكل اليها مهمة الالتفاف حول جناح رابح الأيسر ، والثانية وتتكون من جنود الحملة الأفريقية ومهمتها مهاجمة الجناح الأيمن ، والثالثة وتتألف من جنود حملة نهر شارى وهذه احتفظ بها تحت قيادة رويبللو لتكون الاحتياطى الذى يلجأ اليه عندما تقتضى الحالة .



القومندان لامي

هذا بالإضافة إلى قوات الباجورميين التى كان يبلغ عددها حوالى الستمائة من حملة البنادق ومعهم مائتان من الفرسان والتى لم تشارك فى المعركة أبداً إذ أبى أفرادها أن يطلقوا نيرانهم على رجال رابح الذين تجمعهم وإياهم صلة الجنس بالرغم من أن لامى كان قد وكل اليها القيام بالهجوم المواجه على حصن رابح ليتركها تتحمل عنف الصدمة الأولى .

تحركت قوات لامى حتى أصبحت على مبعدة ميل من معسكر رابح . وهناك التقت ببعض رجال رابح ممن كانوا يقطعون الحشائش الخضراء لتغذية خيولهم فاطلق عليهم رجال الفرقة الأفريقية النار فسارعوا عندئذ بالارتداد نحو أسوارهم وكان هذا إيذانا ببدء المعركة .

أجاب رابح على هجوم الفرقة الأفريقية باطلاق النار على طول الخط فضاعفت الفرقة بجهودها وتقدمت نحو خطوط رابح فى بطء حتى بلغت الأرض المكشوفة الواقعة أمام حصنه فوقعت بذلك فريسة سهلة لرصاص رجاله الذين أوقعوا بها خسارة فادحة اضطرت لامى فى ذلك الوقت المبكر ، وبعد أن رفض الباجورميون المشاركة فى القتال ، إلى الاستعانة بالاحتياطى الذى صـــدرت اليه الأوامر بالتقدم لتأييد هجوم الفرقة الإفريقية .



القومندان لاي وقد أصيب بجرح مميت في معركة كاسوري

وبالرغم من أن مدفعية الفريقين كانت قد بدأت فى ذلك الحين تقذف حممها إلا أن الموقف مع ذلك لم يتغير كثيراً فقد صمدت قوات رابح فى خطوطها واستطاعت أن تحطم الموجة الأولى من هجوم الفرنسيين وأن ترد القوات المتقدمة على أعقابها .

ساد جو المعركة بعد هذا هدوء نسبي واقتصر نشاط المدفعية على بعض الطلقات بين حين وآخر فلما كان وقت الظهيرة عاود الفرنسيون الهجوم وحمل لواءه هذه المرة جنود حملة نهر شارى الذين استطاعوا أن يفتحوا ثغرة فى خطوط رابح تدفقوا خلالها إلى داخل الأسوار واشتبكوا مع المدافعين فى مذبحة مروعة بالسلاح الأبيض لم ينج منها حتى الأطفال والنساء . واضطر رابح تحت وطأة هذا الهجوم إلى الإنسحاب بقواته خارج الحصن. الذى لم يلبث أن دخله الفرنسيون وعلى رأسهم قائدهم لامى وقد ظنوا أنهم فرغوا من عدوهم وكسبوا المعركة نهائياً بذلك القدر من الخسائر .

ولكن رابح لم يكن بالذى يخضع لهزيمة كتلك فأعاد تنظيم قواته من جديد وكر على الحصن محاولا انتزاعه من يد الأعداء . ودارت معركة أقسى من الأولى وسقط لامى وقد أصابته رصاصه فى صدره ، وبذل رابح من العناد والرغبة فى الثأر أقصى ما يستطيع ومن حوله رجاله البواسل وقد أقسموا على أن يدفعوا آخر نسمة

من حياتهم فداء لقائدهم الذى قادهم من قبل إلى النصر فى معارك عديدة مظفرة ، ولكن كل ذلك الجهد لم يمنع النهاية المحتومة من أن تطل برأسها الأسود فوق مصير رابح ورجاله المخلصين .

كانت القوات الفرنسية بوجودها داخل الحصن تتمتع بمركز ممتاز فى الوقت الذى كانت فيه المعركة الأولى قد استنزفت قوى رابح وكبدته خسائر فادحة فى القوات والعتاد . وبالرغم من أنه استطاع فى هجومه الثانى أن يوقع بالفرنسيين خسائر جسيمة كان على رأسها إصابة قائدهم بذلك الجرح المميت إلا أن جهوده قاربت نهايتها أخيراً عند ما أصيب هو الآخر بأكثر من جرح خطير لم يقو بعدها على مواصلة القتال فانطرح على الأرض بين جثث القتلى والجرحى من رجاله .

وفى الوقت الذى رقد فيه الكولونيل لامى بجرحه المميت فى خيمة رابح يعانى سكرات الموت فوق فراش عدوه ، كان جنود الفرقة الأفريقية قد مضوا يواصلون القتال خارج الأسوار مع قوات رابح التى كان نظامها قد بدأ يختل تماما ويطلقون النيران على من بقى حياً من الجرحى .. وأطلق أحد الجنود الأفريقيين رصاصة على أحد هؤلاء الجرحى .. واستقرت الرصاصة فى موضع القلب تماما فانكفأ الجريح فوق التراب وقد فارقته الحياة .

وعند ما اقترب الجندى من ضحيته وأدار الوجه الميت ليبدأ عملية سلبه إذ به يرى نفسه وجهاً لوجه مع رابح وقد أغمضت عيناه إلى الأبد والجرح الذى أصابه قد راح يقطر دماً . ووجهه الأسمر الشاحب بتقاطيعه القوية المعبرة قد غطاه التراب وان لم يستطع الموت على قوته أن يفقدها ما اتصفت به أثناء حياة صاحبها من تعابير الشجاعة والجسارة والإقدام .

* * *

انتشر خبر مقتل رابح سريعاً .. وسرى سريان النار فى الهشيم حتى بلغ فى لحظات قلائل مسامع جنتيل وهو جالس تحت أقدام لامى الذى كانت الحياة قد فارقته هو الآخر ، فلم يصدقه لأول وهله إذ طالما سمع هذا الخبر مئات المرات قبل ذلك فكان فى كل مرة لا يعدو أن يكون إشاعة كاذبة تطلقها السنة خصومه الذين كان يلذ لهم أن يتخيلوه ميتاً بعد أن يعجزوا فى دنيا الواقع عن تحقيق تلك الأمنية الغالية بأيديهم ..

ولكن أنباء مقتل رابح هذه المرة كانت تبدو أقوى من أن تكون بمجرد إشاعة ، فأرسل فى طلب جثته للتحقق منها ، ولم تكد تمضى بعد ذلك عشر دقائق حتى وضعوا عند أقدامه رأساً مقطوعة تنزف دما واستطاع أكثر من رجل وعلى رأسهم خادم رابح نفسه التحقق من أنها هى رأس ذلك البطل الكبير .



رأس رابح .. ووحشية الاستعمار

ولم يستطع جنتيل أن يمنع نفسه من أن تهتز في انفعال عنيف أمام تلك الرأس الملقاة عند أقدامه وقد عاشت بها عقلية حربية سامية كان لا بد للتغلب عليها من أن يجتمع الألوف من الرجال من كل ناحية فلا يستطيعون مع ذلك أن ينالوا منها قبل أن يكبدهم ذلك الهدف افظع الخسائر وأفدحها . .

هذه العبقرية هي التي دفعت جنتيل عدوها الأول إلى أن ينحنى إعجابا وخشوعاً أمام الرأس التي عفرها التراب وأن يكتب في مذكراته يقول :

« إن هذا الرجل الذي تقطر رأسه دما تحت قدمي هو الشجاع الذي كان يجب على الأقل أن نحفظ له حياته . ولقد كنت أود لو سقط حيا بين أيدينا لندخره من الموت ولكنها ارادة القدر .. إني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في هذا البطل الذي دامت فتوحاته وانتصاراته طويلا وهو يقود الآلاف الرجال الذين ملأوا أواسط أفريقيا متحدثين بفتوحاته وجرأته وشجاعته .. »[1]

ويبدو أن جنتيل قد أحس بالوحشية والخسة التي صاحبت قطع رأس رابح بعد موته والتمثيل بجثته فأراد أن يرد عن نفسه ذلك العار بقوله إنه كان يود لو استطاع أن يحفظ لرابح حياته

(١) « سقوط امبراطورية رابح » لمؤلفه اميل جنتيل صفحة ٢٢٠

لولا أنها إرادة القدر . فاذا كان قد استطاع أن يتمسح فى القدر ليجد لنفسه مخرجا من تهمة قطع الرأس فى حد ذاتها فانه لن يستطيع أن يتهرب من عار أقوى وأبشع عندما سمح بعد ذلك بأن ترفع الرأس وهى تقطر دما فوق حربة طويلة وأن يطوف بها أحد الجنود السنغاليين ليعلن بذلك عن فروسية فرنسا وشرفها فى معاملة الرجال الذين يذودون عن شرف أوطانهم وحرياتها ..

إن فرنسا التى لم يعرف حكامها عام ١٩٠٠ فى قتالهم ضد رابح معنى لكلمة الشرف هى نفس فرنسا التى يحفظ لها التاريخ حتى اليوم إنها قد رفعت فوق الرماح فى كل مكان وطأته أقدامها فى أفريقيا آلافا من رؤوس الأحرار كرأس رابح تقطر دما ، وتشهد عليهم وتنادى بالثأر فى يوم قريب . .

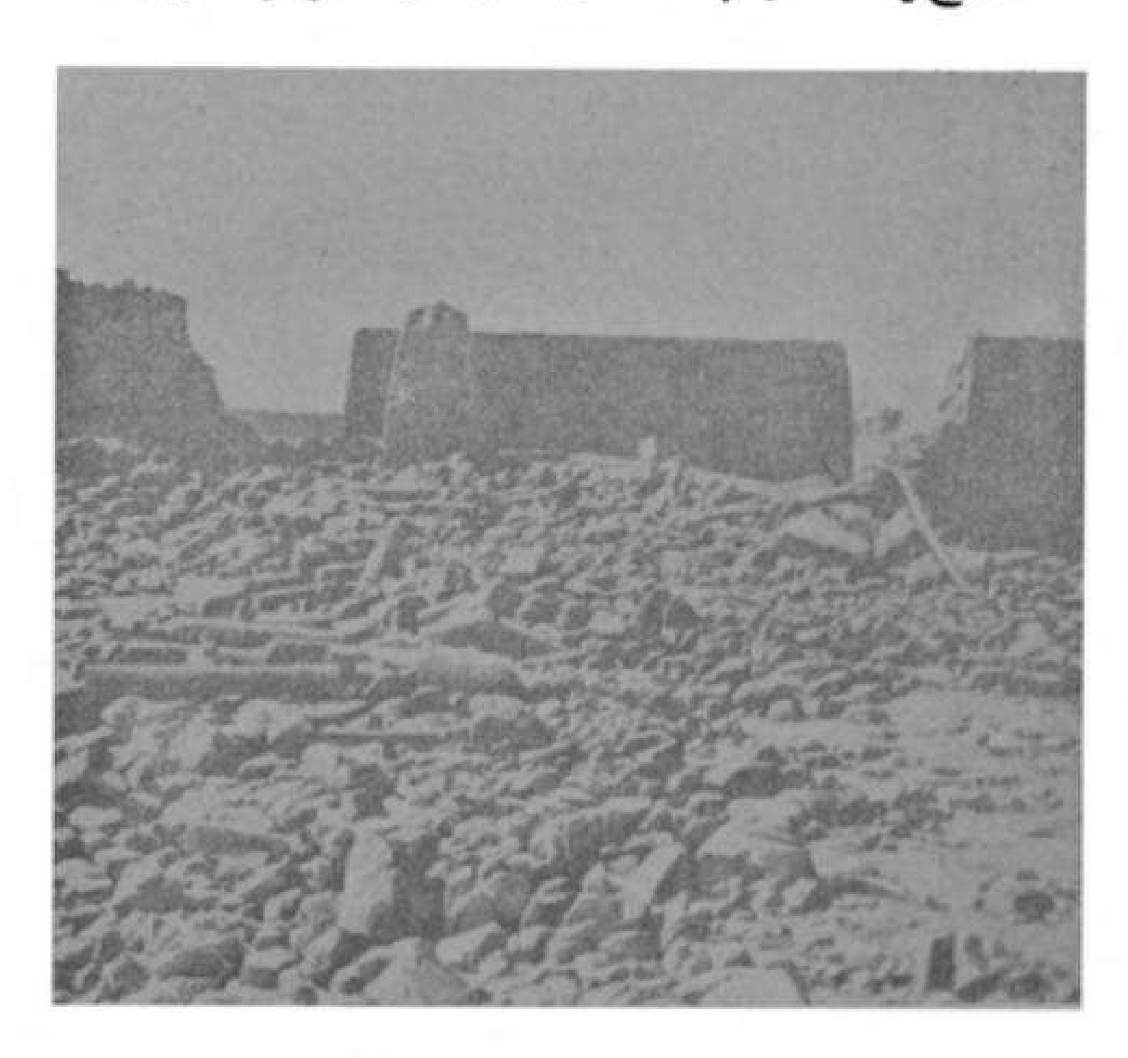
* * *

بلغ مقتل رابح ابنه فضل الله الذى كان مقيما فى لوجون حيث انضمت اليه فلول جيش رابح التى بقيت على قيد الحياة بعد معركة كاسورى فآثر عندئذ الانسحاب من تلك البلدة والاتجاه إلى دكوة للانضمام إلى أخيه ، محمد نيابى ، الذى كان لا يزال يعانى من أثر الجرح الذى أصيب به فى معركة تجباو .

وزحف الفرنسيون على لوجون لاحتلالها ثم بدأوا بعد ذلك

فى الزحف على دكوة فاستسلمت لهم بغير قتال بعد أن كان فضل الله قد أخلاها هى الأخرى منذ أن علم بزحف الفرنسين عليها .

واقتحمت القوات الفرنسية سراى راج بدكوة للإقامة بها واتخاذها مقراً لقيادتها . . ولكن أحد الفدائيين من رجال فضل الله استطاع أن يتسلل متستراً تحت جنح الظلام إلى الدهليز الذى كان راج يحتفظ فيه باسلحته وذخائره وأشعل فيه النيران فانفجر



فناء سراى راج بعد نسفه بيد رجال راج

ما يحتويه من بارود فى دوى شديد ولم تلبث النيران أن امتدت إلى كافة أرجاء السراى فقضت على اثنين من ضباط المدفعية الفرنسيين وعلى عدد كبير من البنادق ومهمات المدفعية ثم مضت تلتهم النفائس والرياش حتى أتت عليها جميعا بالرغم من الجهود التى بذلها الفرنسيون والتى لم تفلح فى غير انقاذ بعض من الذخيرة التى كان امتداد النار اليها كفيلة بنسف مدينة دكوة باسرها . أما القصر نفسه فقد تحول إلى حطام وأنقاض كانت هى كل ما بقى من ذلك البناء الشامخ الذى أدار منه رابح شئون امبراطوريته الواسعة الغنية التى كانت قد بدأت هى الأخرى تنهار وتتهاوى إلى أكوام من أنقاض وذكريات .

تابعت القوات الفرنسية بعد ذلك مطاردة فضل الله فالتقت به فى بلدة تدعى ديجامبا Deguemba فدحرته ولكنه استطاع مع ذلك الانسحاب بمن بقى معه من الرجال متجها نحو الجنوب فتعقبه الفرنسيون حتى عاودوا الاتصال به فى بلدة «ايسجى Isgue» على حدود «مندارا» حيث دارت رحى معركة ثانية لم تنته هذه المرة إلى نتيجة حاسمة وإن كانت قد اسفرت عن وقوع الكثيرين من معسكر فضل الله فى الأسر ومن بينهم زوجته خديجة بنت السنوسى و «تيارزا» خليلة كرامبل التى كانت تعيش منذ أن قتل عشيقها فى كنف رابح ومن بعده ابنه فضل الله .

لم توهن هذه الهزائم المتكررة المتلاحقة من عزيمة فضل الله الذى ورث عن أبيه حب الكفاح وصلابة العزيمة فانحدر نحو الجنوب وأقام فى بلدة تسمى «برجامة» وراح يحشد الجنود ويحرض الأهالى على القيام لأخذ الثأر وتطهير بلادهم من أعدائهم الفرنسيين. ولاقت دعوته نجاحاً كبيراً حتى اجتمع حوله من جديد جيش من نحو الفين من الرجال. وكانت الأمور فى بورنو فى ذلك الحين قد بدأت تضطرب من جديد بعد أن اختلف الشيخ عمر الذى كان الفرنسيون قد ولوه على بورنو بعد سقوط دكوة مع سادته المحتلين فعزلوه وولوا مكانه أخاه غرباوى مما أطمع فضل الله فى أن يغزو بورنو ويعيد سيرة أمبراطورية أبيه من جديد.

وفعلا هاجم فضل الله غرباوى هذا ودارت بينهما معركة بالقرب من بلدة تاجالا انتهت بهزيمة غرباوى وفراره إلى كانم[1] وأحيا هذا الانتصار آمالا واسعة فى صدر فضل الله، ورفع كثيراً من روح رجاله المعنوية فعول بعده على مهاجمة الفرنسيين أنفسهم وأرسل إلى رويللو الذى كان قد تولى الادارة الحكومية بعد عودة جنتيل إلى فرنسا يطالبه باسلاب أبيه. ولم تكن القوات الفرنسية بعد أن أنهكتها كل تلك الحروب راغبة فى أن تبدأ حرباً

(١) حاضر العالم الاسلامى ــ تأليف الأمير شكيب أرسلان ص ٣٢٥ ــ ٣٢٧

جديدة مع فضل الله فأرسل اليه روبيللو يفاوضه فى عقد معاهدة بينهما يمنح فضل الله بمقتضاها حكم مقاطعة بورنو فى مقابل أن يعترف بالحماية الفرنسية عليها[1].

ولكن فضل الله أبى أن يتحالف مع أعدائه وأعداء أبيه أو أن يعطى الاحتلال الذى مات أبوه وهو يقاتله صكا بشرعية وجوده فى تلك البلاد فيتساوى بذلك فى الخيانة مع السلطان جوارنج فرفض هذا العرض وهاجم بلدتى مكارى وجولفى واحتلهما من جديد وبدأ يحرض قبائل البورنويين الذين عاشوا تحت حكم أبيه فسعدوا بما لم يسعدوا به تحت حكم من جاءوا بعده فرحبوا لذلك بالإنضمام إليه حتى قويت شوكته وبدا أنه يوشك فعلا أن يعيد سيرة أبيه العظيم وأن ينتقم لمقتله المهين الذى تم عند أسوار كاسورى .

وكان غرباوى فى ذلك الوقت قد عاد إلى دكوة فهاجمه بها فضل الله وهزمه هزيمة ساحقة واستعاد بذلك العاصمة التى شهدت عهداً ذهبياً مجيداً تحت حكم رابح حتى نمت وازدهرت كسوق للتجارة واضحت كما قدمنا المدينة الأولى فى وسط أفريقيا والتى كان فضل الله يأمل أن يعيد اليها المجد من جديد . .

ولكن انتصارات فضل الله هذه كانت أشبه الأشياء بانتفاضة الشعلة وتوهجها قبل أن يخمد ضوؤها وتخبو أنفاسها إلى

---

(١) سقوط امبراطورية رابح ـ تأليف أميل جنتيل صفحة ٢٦٤

الأبد .. فقد أقلقت هذه الانتصارات السلطات الفرنسية إلى حد بعيد وخشيت أن يعيد فضل الله سيرة أبيه وأن يجمع حوله الساخطين على الاستعمار الفرنسي الذي كان قد بدأ يسفر عن حقيقته ويصطدم بالأهالي وبنفوذ رؤساء القبائل فاستدعت روبيللو لفشله في كسر شوكة فضل الله وعينت بدلا منه قائداً جديداً يدعى الكولونيل ديستيناف Destenave وكلت اليه مهمة القضاء على ذلك العدو الجديد .

وآذنت شمس الكفاح الوطني في تلك البقعة من افريقيا على الغروب فان ديستيناف لم يلبث أن وجه ضد فضل الله حملة كبيرة التقت به في معركة بالقرب من داتا نهر شارى واستطاعت أن توقع به الهزيمة الفاصلة ، وبعد أن سقط صريعاً كما سقط رابح من قبل وتبدد جيشه فطويت بذلك نهائيا صفحة عاطرة من صفحات الوطنية التي كتبها بدمه ودم أولاده رجل نزح من جنوب السودان فكانت عبقريته صنوا لطموحه وكان عداؤه للاستعمار لا يقل عن حبه لتلك البلاد التي أحبها واتخذ منها وطنا ثانيا رواه بدمه في سخاء بعد أن وقف حياته على رقيه والعمل على النهوض به .

لقد أفل نجم امبراطورية رابح .. ولكن سيرة رابح لم تأفل بعد ولن يستطيع النسيان أن يمحوها من قلوب الأحرار فان امثال رابح كما يقول عنهم كارليل مؤرخ الأبطال ، رجال تتحدى ذكراهم الزمن ويقف بين أعمالهم العظيمة الخالدة وناموس النسيان ستار كالفولاذ من محبة الأحرار في كل عصر وجيل . . .

الاستعمار الفرنسي في غرب وشمال افريقيا

فى يوم من أيام عام ١٦٣٧ كان هناك شاب فرنسى يدعى « كلود جانكين دى رو شفورت » يذرع ارصفة ميناء «دييب» بفرنسا وقد ساوره الهام غامض بأنه سيكون واحداً من كبار المستكشفين . ولقد حدث أن سأل عن وجهة سفينة معينة فلما قيل له إنها فى طريقها إلى نهر سيناجا بافريقيا قرب رأس فيرد أصر على الالتحاق بها فلم تكد تمضى بضع ساعات حتى كان قد قيد اسمه فى سجل السفينة كجندى .

ويبدو أن تلك السفينةلم تكن تحمل على ظهرها جنوداً فحسب وإنما رهباناً أيضاً وكانت قد أعدت بناء على أوامر سلطات بعيدة النظر وكان خط السير المرسوم لها قبلأن يلتحق بها «روشفورت» أن تصل إلى شواطىء أفريقيا الغربية لترسو شمال نهر السنغال حيث يقوم رجالها بقطع الأخشاب وبناء قارب صغير يستخدم لاستكشاف منطقة السنغال . وكانت هذه الخطة قد وضعت بناء على جهل بحقيقة هامة : وهو أن الساحل الأفريقى إلى الشمال من السنغال وإلى الجنوب من مراكش لا يحتوى على أية أشجار تصلح لبناء القوارب .

وعندما اكتشفت هذه الحقيقة عمدت تلك البعثة القادمة من « دييب » تحت قيادة الكابتن « لامبرت » والتي كانت تضم بين رجالها روشفورت إلى التوجه إلى السنغال وبناء سفينة صغيرة من الأخشاب التي احضرتها معها من فرنسا . وإلى هذا القارب نقل بعض البحارة ومن بينهم « روشفورت » الذي كان يقوم بعمل السكرتير لقائد السفينة ومضوا فارتادوا حوالى ١١٠ ميلا من نهر السنغال ابتداء من مصبه .

ولقد عادت بعد ذلك بعثة لامبرت إلى فرنسا بعد أن حصلت على امتيازات عديدة من الأهالى هناك ، ولم يلبث روشفورت بعد ستة سنوات من عودته أن نشر عن هذه المغامرة كتاباً حوى الكثير من التفاصيل الغريبة الممتعة .

ولمدة طويلة لم يتبع بعثة لامبرت اية بعثة أخرى إلى أن باعت شركة « نورمانديا » حقوقها فى منطقة السنغال إلى شركة « غرب الهند الفرنسية » التى نقلتها بدورها بعد ذلك إلى مؤسسة فرعية تسمى « شركة السنغال الملكية » التى عمدت إلى إرسال واحد من أقدر رجالها يدعى « أندريه دى برو » ليشرف على أعمالها هناك بجزء من قلعة سانت لويس التى أقامتها بعثة دى روشفورت مقراً لقيادته .

وكان دى برو يجمع إلى مواهب العلماء دهاء التاجر البعيد

النظر حتى ليمكن فى الواقع اعتباره أول من وضع الأساس الحقيق للامبراطورية الفرنسية فى غرب أفريقيا .. ولقد قام ، خلال مدة اقامته هناك على شواطىء نهر السنغال التى امتدت إلى ثمانية عشر عاما ، برحلتين هامتين صاعدا خلال نهر السنغال ومتوغلا فى الداخل كما زار جامبيا فى عام ١٧٠٠ حيث التقى هناك عند مصب النهر بأحد الانجليز ممن يشتغلون بتجارة الرقيق يساعده معاونون من الهولانديين والبرتغاليين .

ولم يقتصر نشاط دى برو عند هذا الحد فقد عمد فى أوائل القرن الثامن عشر إلى ارسال بعثة من عملائه لتوسيع رقعة النفوذ الفرنسى ولمد نفوذ شركته على طول نهر السنغال وفى اتجاه مقاطعة بامبوك العامرة بمناجم الذهب والتى تكوّن المنطقة الجبلية لأعالى نهر السنغال .

وعاد دى برو فى النهاية إلى فرنسا عام ١٧١٥ ليعيش حياة رخية طويلة على الثروة الضخمة التى كان قد جمعها بعد أن نجح فى أن يخلد اسمه كواحد من مؤسسى الامبراطورية الفرنسية فى أفريقيا ، وفى أن يترك وراءه فى تلك البلاد رجالا مثله فى الدهاء والمهارة ليتموا العمل الذى بدأه هو .. ومن بين هؤلاء نذكر « كومبانيون » الذى كان استاذاً فى المخاتلة والخداع والذى تمكن بمواهبه تلك من أن يجتذب قلوب المواطنين البسيطة

الساذجة مما ساعده على بسط نفوذه على « بامبوك » التى كان الأهالى هناك يصدون عنها كل غريب صيانة لأسرارها كموطن لاستخراج الذهب .

واستمر الفرنسيون فى توسيع رقعة منشآتهم فى السنغال حتى عام ١٧٥٨ عند ما استولى عليها البريطانيون الذين حافظوا عليها حتى عام ١٧٧٨ إلى أن استردها منهم الفرنسيون بمقتضى اتفاقية للسلام عقدت بين الدولتين . ولكن انجلترا كعادتها دائما فى نقض المعاهدات عادت تخرق تلك الاتفاقية وعاودت الاستيلاء على المستعمرة عام ١٧٩٠ إلى أن تمكن الفرنسيون مرة أخرى من استرجاعها منهم حوالى عام ١٨٠٠ .

وخلال الحرب النابوليونية احتل الانجليز من جديد ممتلكات الفرنسيين فى السنغال فلما انتهت هذه الحروب بهزيمة نابليون عام ١٨١٥ كانت السنغال من بين المستعمرات التى سمحت الدول الأوروبية بعودتها إلى فرنسا . وعاود الفرنسيون من جديد محاولاتهم لتوسيع دائرة استعمارهم وارتياد منطقة سينجامبيا وما حولها من المقاطعات الغنية ، فما كادوا يفرغون نهائيا من احتلال حوض السنغال عام ١٨١٧ حتى بدأت هذه المحاولات تأخذ شكلا منظما .

ففى عام ١٨١٨ اكتشف « موليان » منابع نهر جامبيا بينما اكتشف « دى بوفورت » منطقة كارتا . وفى عام ١٨٢٧ بدأ

« رينيه كاييه » رحلته فى نهر نونيز بعد أن تلقى العون من مستعمرة سيراليون (وهو الجميل الذى لم يحفظه لتلك المستعمرة بعد ذلك) واستمر فى سيره فى نهر النيجر حتى بلغ « تمبكتو » ومن بعدها عبر الصحراء إلى مراكش . والواقع أن تلك الرحلة الطويلة لم تفد كثيراً فى توطيد أقدام الاستعمار الفرنسى فى تلك البقاع فى ذلك العهد لأن قائداً من أهل تلك البلاد يدعى « الحاج عمر » كان قد بدأ ظهوره عندئذ ولم تؤد فتوحاته إلى إقفال الطريق إلى النيجر فحسب وإنما نجحت أيضاً فى تهديد الاحتلال الفرنسى لمقاطعة السنغال نفسها .

بعد ذلك فقدت مستعمرة السنغال اهتمام فرنسا بها لفترة طويلة امتدت حتى عام ١٨٥٤ عندما نفى اليها الجنرال « فيد هرب » الذى كان ، ولأسباب سياسية ، لا يتمتع بثقة الامبراطورية الفرنسية الثانية الحديثة العهد فرأت هذه التخلص منه بنفيه إلى تلك البلاد تحت ستار تعيينه حاكما لها . وكان هذا الجنرال رجلا ذا ذكاء بعيد وأطماع واسعة فبدأ منذ اليوم الأول من وصوله إلى تلك المنطقة يبحث جديا امكانيات توسيع رقعة المستعمرة التى عين حاكما لها .

وبدأ فيد هرب أولا بمعاقبة قبائل الموريش التى تقطن شمالى النهر والتى كانت قد دأبت على مهاجمة المنطقة بين الفينة والفينة ،

كما أخضع منطقة «وولى» وعمد إلى بناء قلعة «مدينا» لوقف تقدم الحاج عمر الذى منى فى هجومه على القلعة بخسائر فادحة اضطرته إلى الارتداد عنها بقواته التى كانت تبلغ نحو عشرين الفا من الرجال..

واستطاع فيد هرب بعد هزيمة الحاج عمر أن يحتل بعض الاقاليم فى حوض السنغال الأعلى وحول منطقة جامبيا ولم يمض عام واحد حتى كان قد أتم احتلال المنطقة الواقعة بين سانت لويس ومصب نهر جامبيا وفى حوالى عام ١٨٦٠ أضاف إلى الممتلكات الفرنسية الشاطىء الواقع بين غينيا البرتغالية ومقاطعة سيراليون وأطلق عليه اسم الريفيرا الجنوبية.

وجاءت الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا فأدت إلى توقف العمليات الفرنسية فى تلك الجهات والتى لم تستؤنف قبل عام ١٨٨٠ عندما شرع كابتن جالينى Gallieni فى إقامة خط حديدى يربط بين نهر السنغال الصالح للملاحة بمنطقة النيجر العليا التى كان قد بلغها فى ذلك العام عند بلدة باماكو. ولكن جالينى لم يلبث أن اضطر إلى الارتداد أمام هجوم الملك أحمادو ابن الحاج عمر وخليفته الذى شن عليه هجوما موفقا والذى كان سلطانه يمتد إلى المنطقة الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر.

ولقد بقى الملك أحمادو شوكة فى جانب القوات الفرنسية وستاراً

منيعاً ضد تقدمها فى بلاد النيجر إلى أن تمكنت حملة فرنسية بقيادة الكولونيل ديسبورد من احتلال عاصمته كيتا وإرغامه على توقيع معاهدة وضعت منطقته بمقتضاها تحت الحكم الفرنسى .

وحوالى عام ١٨٨٣ كان الفرنسيون قد أتموا احتلال باماكو وتحصينها وبدأوا يخوضون صراعا طويلا ضد ساموری وهو ملك زنجى استطاع أن يرتفع من نشأة متواضعة إلى مرتبة الغزاة والفاتحين وأن يبسط سلطانه على المناطق الواقعة حول منابع نهر النيجر . وفى خلال عامى ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ وجهت فرنسا ضده حملة كبيرة تحت قيادة الكولونيل « فرى » استطاعت أن تحقق بعض النجاح وإن لم تفلح تماماً فى القضاء على نفوذ ذلك الملك الزنجى .

وفى عام ١٨٨٧ عاد جالينى إلى عقد معاهدة أكثر سخاء مع احمادو واستطاع أن يقيم خطا حديدياً حول منابع نهر السنغال كما استطاع أن يعقد معاهدة أخرى مع ساموری اعترف الأخير بمقتضاها بتبعية جزء صغير من منطقة النيجر العليا للحماية الفرنسية .

وفى نفس العام (١٨٨٧) ارسل جالينى الملازم كارون فى سفينة حربية لزيارة مدينة « تومبكتو » ولكن كارون هذا لم يكد يصل إلى ميناء تومبكتو المسمى كابارا حتى اصطدم بشعور العداء الذى أظهره نحوه الأهالى مما منعه من زيارة المدينة واضطره إلى العودة دون أن يحقق هدفاً واحداً .

وفى عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسى هو من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التى يضمها حوض نهر النيجر عند انحناءته العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسى والحماية الفرنسية فوق مقاطعات تيبه وكونج وباقى البلاد الواقعة بين نهر النيجر وشاطىء العاج .

وبدأ احمادو فى عام ١٨٩١ يحاول أن ينفض عن كاهل بلاده دنس النفوذ الفرنسى ويتمرد على المعاهدات التى عقدها مع أعداء بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم فى موقعة دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى الكولونيل ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة باضافة مستعمرات كاراتا وباخونو وسيجو إلى السنغال الفرنسى وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص ممتلكاتها فى السنغال من الوقوع تحت سيطرة طريق تومبكتو الذى كان لايزال حتى ذلك الحين مغلقاً فى وجه النفوذ الفرنسى .

وصحب يقظة احمادو وتمرده على الفرنسيين يقظة أخرى قادها ساموري فما كاد أرشينارد يخلص من الأول على النحو السابق حتى استدار ليواجه الثانى واستطاع أن يحتل عاصمته «بيساندجو» Bisandeego بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم ساموري نحو

وفى عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسى هو من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التى يضمها حوض نهر النيجر عند انحناءته العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسى والحماية الفرنسية فوق مقاطعات تيبه وكونج وباقى البلاد الواقعة بين نهر النيجر وشاطىء العاج .

وبدأ احمادو فى عام ١٨٩١ يحاول أن ينفض عن كاهل بلاده دنس النفوذ الفرنسى ويتمرد على المعاهدات التى عقدها مع أعداء بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم فى موقعة دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى الكولونيل ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة باضافة مستعمرات كاراتا وباخونو وسيجو إلى السنغال الفرنسى وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص ممتلكاتها فى السنغال من الوقوع تحت سيطرة طريق تومبكتو الذى كان لايزال حتى ذلك الحين مغلقاً فى وجه النفوذ الفرنسى .

وصحب يقظة احمادو وتمرده على الفرنسيين يقظة أخرى قادها ساموري فما كاد أرشينارد يخلص من الأول على النحو السابق حتى استدار ليواجه الثانى واستطاع أن يحتل عاصمته «بيساندجو» Bisandeego بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم ساموري نحو

وفى عام ١٨٨٨ بدأ كابتن بنجر لحساب فرنسا رحلة استكشافية أدت إلى نتائج باهرة للغاية . فقد كان هذا الضابط الفرنسى هو من أوائل من ارتادوا تلك البقاع المجهولة التى يضمها حوض نهر النيجر عند انحناءته العليا الشمالية كما استطاع عن طريق إبرام المعاهدات أن يبسط النفوذ الفرنسى والحماية الفرنسية فوق مقاطعات تييه وكونج وباقى البلاد الواقعة بين نهر النيجر وشاطىء العاج .

وبدأ احمادو فى عام ١٨٩١ يحاول أن ينفض عن كاهل بلاده دنس النفوذ الفرنسى ويتمرد على المعاهدات التى عقدها مع أعداء بلاده تحت سيف التهديد والقسر ولكنه لم يلبث أن هزم فى موقعة دارت بينه وبين قوات فرنسية تحت قيادة ضابط يدعى الكولونيل ارشينارد وانتهت تلك الهزيمة باضافة مستعمرات كارانا وباخونو وسيجو إلى السنغال الفرنسى وبهذا استطاعت فرنسا أن تخلص ممتلكاتها فى السنغال من الوقوع تحت سيطرة طريق تومبكتو الذى كان لايزال حتى ذلك الحين مغلقاً فى وجه النفوذ الفرنسى .

وصحب يقظة احمادو وتمرده على الفرنسيين يقظة أخرى قادها سامورى فما كاد أرشينارد يخلص من الأول على النحو السابق حتى استدار ليواجه الثانى واستطاع أن يحتل عاصمته «بيساندجو» Bisandeego بالقرب من حدود ليبيريا فتقدم ساموري نحو

الشرق حتى وصل إلى حدود مستعمرة ساحل الذهب ، وهناك بذلت محاولات متعددة خلال عامي ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ لمهاجمته والقضاء عليه فى مملكته الجديدة باءت جميعها بالفشل الذريع وكان أهمها محاولة الكولونيل مونتيل (وهو الذى كان قد سبق له القيام برحلة من السنغال إلى نيجر ومن هناك إلى بورنو ثم طرابلس عبر الصحراء) فقد بدأ بحملة من ساحل العاج لم تلبث أن باءت بالفشل مما دفع الحكومة الفرنسية إلى استدعائه من تلك المناطق .

وفى النهاية ، وفى خريف ١٨٩٨ تقدم الملازم « وولفل » وبعض الضباط الفرنسيين على رأس حملة قامت من ساحل العاج لمهاجمة ساموری ، فأوقع به هزيمة ساحقة واباد قواته تماما . .

* * *

وفى خلال حكم الملك لويس فيليب لفرنسا فترت الفتوح الاستعمارية إلى حد ما وإن كان هذا لم يمنع فرنسا من بذل محاولات ضعيفة لبسط نفوذها على نيوزيلندا وتوطيد أقدامها فى نيوكاليدونيا وتاهيتى فى المحيط الهادى. كما سعت فى هذه الفترة أيضاً إلى توسيع ممتلكاتها فى إفريقيا بإخضاع المناطق الواقعة على السواحل الغربية لإفريقيا والتى لم تكن قد ضمتها بعد .

ولقد استطاعت فرنسا فى ذلك الحين أن تكسب بعض الحقوق على مناطق باسام الكبرى وآسينى الواقعة إلى الغرب من

المنطقه البريطانية فى ساحل الذهب . فلما كان عام ١٨٦٠ بذلت الإمبراطورية الثانية بعض المحاولات للحصول على نفوذ متزايد فى إفريقيا كان من نتيجتها أن استطاعت فرنسا فى عام ١٨٦٨ الحصول على بعض الامتيازات فى مدينة « بورتو نوفو » . ولقد كان من الممكن أن تبيع فرنسا هذه الإمتيازات لانجلترا فى مقابل مبالغ ضئيلة غير أن السباق الاستعمارى بين الدولتين الذى كان قد بدأ منذ عام ١٨٨٤ متخذاً إفريقيا مجالا له لم يلبث أن أكسب تلك الإمتيازات التى نالتها فرنسا أهمية قصوى فى نظر الفرنسيين أنفسهم الذين طمعوا فى أن يجعلوا منها نقطة ارتكاز فى توسع نحو الشمال من خليج غينيا فى اتجاه مستعمرة النيجر التى كانت فرنسا قد بدأت تحلم بالاستيلاء عليها .

وهكذا فى عام ١٨٨٤ بدأ الفرنسيون احتلالهم الفعلى لمناطق باسام وآسينى على ساحل الذهب وبورتو نوفو التى كانت تعتبر كمملكة صغيرة تخضع لسلطان داهوم . ولقد أكسبت رحلة الكابتن « بنجر » التى قام بها من النيجر إلى ساحل الذهب منطقة باسام الكبرى أهمية خاصة وترتب عليها فى عام ١٨٩١ سقوط المنطقة الواقعة على ساحل العاج بين باسام الكبرى وليبيريا فى قبضة الاحتلال الفرنسى .

وكان من نتيجة كل ذلك أن أصبح ذلك الساحل الذى كانت

تعتبر مناطقه الداخلية من أكثر مناطق إفريقيا غموضا على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لسفن التجارة الانجليزية . وبالرغم من أن رؤساء المناطق الواقعة على هذا الساحل كانوا يقدمون مع صداقتهم ابريطانيا كافة التسهيلات لسفنهم التجارية إلا أن الحكومة البريطانية لم تتخذ أية خطوة أو تقدم أى احتجاج عندما احتلت فرنسا مقاطعات ذلك الساحل وأصبحت بذلك الجارة التالية لليبيريا التى سارعت فى عام ١٨٩٤ بعقد معاهدة معها تخول لفرنسا الحق فى التقدم لحماية تلك المملكة فى حالة تعرضها لخطر الوقوع تحت نفوذ أو حماية أية قوة أخرى . .

ولم يلبث احتلال بورتونوفو أن أدى سريعاً إلى الاشتباك مع مقاطعة داهومى التى تحدث فى فترات مختلفة كلا من الانجليز والبرتغال وسخرت أكثر من مرة من جهودهم الخائبة لغزو شواطئها . وأسفرت المعارك الأولى مع هذه المقاطعة العنيدة إلى احتلال أولى موانئها وفرض النفوذ الفرنسى على أرجائها ولكن الملك « بهانزين » سرعان ما عاود الهجوم والقتال مما اضطر القوات الفرنسية إلى أن تضاعف جهودها فسيرت ضده حملة فى عام ١٨٩٣ تحت قيادة الجنرال « دودز » وكانت هذه هى المرة الأولى التى تغزو فيها هذه المقاطعة قوات نظامية تامة التسليح فكان طبيعياً بعد عدد من المعارك أن يتم احتلال البلاد نهائياً

وهزيمة ملكها الذى وقع فى الأسر ونفى بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية .

فى نفس الوقت كانت القوات الفرنسية تتقدم خطوة وراء خطوة خلال مناطق النيجر العليا فاستطاعت فى ١٨٩٣ احتلال «جين» المدينة الهامة التى تعتبر مهد الحضارة النيجرية والأم الروحية لمدينة «تومبوكتو» . ومن جين سار الكولونيل إرشينارد متجها لغزو تمبوكتو دون انتظار لأوامر الحاكم العام لسينجابيا بل وقيل أنه بدأ هذه الحملة ضد أوامر الحاكم العام بالذات.

واستطاع ارشينارد أن يفتح مدينة تومبوكتو بعد معركة قصيرة اشتركت فيها فصيلتان من المشاة وحملة بحرية قامت من ميناء «كبارا» تحت قيادة القومندان بوايتيه . ولم يمض وقت قصير على احتلال المدينة حتى بدأ الطوارق يهاجمون المنشئات البحرية التى كان الفرنسيون قد أقاموها فى ميناء كبارا واستطاعوا أن يلحقوا بها خسائر جسيمة . فما كادت هذه الأخبار تبلغ بوايتيه حتى غادر تومبوكتو قاصداً كبارا لملاقاة الطوارق ولم يلبث الموقف أن تحسن إلى حد كبير عندما لحقت به هناك فى ١٤ يناير ١٨٩٤ طوابير المشاة الأولى تحت قيادة الكولونيل بونيه Bonnier

وخرج بونيه على رأس قوة صغيرة لتفتيش المناطق المجاورة لتومبوكتو لطرد الطوارق منها . وكان على حد كبير من الثقة

بنفسه فلم يحرص على اتخاذ وسائل الحيطة اللازمة فسار بقواته مغمض العينين إلى الفخ الذى نصبه له الطوارق .. وفى الفجر هاجم الطوارق معسكره وأبادوا القوة الفرنسية عن آخرها فلم ينج منها سوى ثلاثة من الضباط وحفنة من الجنود أمكنهم الفرار ليرووا القصة بعد ذلك .

وبعد خمسة وعشرين يوما وصل إلى مسرح الحوادث طابور آخر من المشاة بقيادة الكولونيل جوفر الذى لم يكد يفرغ من إزالة آثار المعركة السابقة حتى نشط إلى تعقب الطوارق للانتقام منهم . وبعد عدد من المناوشات استطاع جوفر أن يفاجىء معسكر الطوارق أثناء الليل وأن يبيد منهم عددا كبيرا . وكان هذا هو آخر عهد الفرنسيين بالطوارق الذين لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة .

بعد ذلك نشط الفرنسيون فى إرسال الدوريات التى تجوب نهر النيجر إلى أبعد نقطة شمالى تومبوكتو وفى انفاذ البعثات المتعددة التى لم تلبث أن اخترقت المنطقة التى ينحنى فيها نهر النيجر من مساقطه العليا نحو مجراه الأوسط تعقد المعاهدات وتنشر الحكم الفرنسى فى كل منطقة تمر بها .

ومرة أخرى ، منذ أخضع الفرنسيون مملكة داهومى ، عادت القوات الفرنسية إلى استئناف التقدم نحو الشمال فى اتجاه خط الطول التاسع الذى كان يفصل بين الممتلكات الفرنسية

والانجليزية فاحتلت نيكى Nikki (التى كان قد سبق للكولونيل ليجارد احتلالها لحساب شركة نيجريا الملكية) وبوسا . وكان إقدام الفرنسيين على هذا العمل على جانب كبير من الأهمية فلقد كان للانجليز السبق فى إعلان خضوع تلك المنطقة للنفوذ الانجليزى مما أدى إلى ثورة الشعور العام فى انجلترا لتصرف فرنسا على ذلك النحو . وانتهى الأمر بعقد مؤتمر فى باريس بقصد الوصول عن طريق المفاوضات إلى اتفاق بين الدولتين . وفى هذا المؤتمر سلمت فرنسا بعودة بوسا إلى انجلترا مع احتفاظها هى بمقاطعة نيكى وبالحق فى التوسع لبسط نفوذها على الضفة الغربية لنهر النيجر . .

وبهـــذا ربطت فرنسا فتوحاتها فى مملكة داهومى ببقية امبراطوريتها فى النيجر . .

* * *

فى أواخر القرن السابع عشر نصح لويس الرابع عشر وزيره ليبتز بالنزول على شواطىء مصر واحتلال ذلك الطريق الهام المؤدى إلى الهند . ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها حينئذ الخروج إلى حيز التنفيذ فنامت فى ارشيفات الحكومة الفرنسية إلى أن تصادف اكتشافها بعد ذلك بواسطة رجال حكومة الديركتوار عقب الثورة الفرنسية . وسواء أنقلت هذه الفكرة إلى نابليون بونابرت بقصد ارساله فى مهمة فاشلة كتلك للتخلص منه أو أنها

جالت بخاطر نابليون نفسه دون أن يعلم بوجودها من قبل وتمنى القيام بها لتوجيه ضربة قاضية لطريق الاستعمار الانجليزى إلى الهند ، فإن القائد الكورسيكى لم يلبث على أى حال - وهو فى أوج نشوته بانتصاراته الباهرة فى إيطاليا - أن فاجأ أوروبا كلها بحملته على مصر بعد أن استطاع تضليل الأسطول الانجليزى والنزول إلى الأسكندرية فى عام ١٧٩٨ بقواته التى بلغ عددها حوالى أربعين ألفا من الرجال .

والتقى نابليون بالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر فى ذلك العهد باسم سلطان تركيا فاوقع بهم الهزيمة وطاردهم إلى الصعيد ومن ثم استتب له الأمر فى القاهرة . وحاول لكى يكسب عواطف المسلمين أن يدعى اعتناقه للاسلام وتحبيذه لمبادئه ولكن نلسون لم يترك نابليون طويلا ليتمتع بثمرات انتصاره فهاجم أسطوله فى خليج أبى قير وحطمه تماماً كما أنزل إلى الأراضى المصرية قوات تركية لطرد نابليون من مصر ولكن هذه القوات لم تلبث أن أبيدت فى معركة أبى قير البرية التى كأنما أرادبها نابليون أن يثأر لأسطوله الغريق . .

وأدرك نابليون بعد أن تحطم أسطوله أنه قد حكم عليه بالبقاء فى مصر فحاول ابتلاع سوريا وقد خيلت له أوهامه أنه قادر على أن يقود منها جيوشه نحو القسطنطينية وإنشاء امبراطورية

فى الشرق كامبراطورية الاسكندر يكون هو عليها ملكا وسلطانا ..

ومرة أخرى تصدى الانجليز لخطط نابليون فعملوا على معاونة حاكم عكا على الصمود لحصار نابليون لذلك الحصن حتى اضطر هذا الارتداد عنه مهزوما . ونجحت هذه الهزيمة فى أن تنفض عن مخيلته أحلام الامبراطورية فلم يلبث أن غادر مصر متسللا إلى فرنسا وقد خلف من بعده مساعده كليبر على رأس الحملة ولكن كليبر لم يلبث أن قتل ، وثار المصريون ، ووجهت تركيا وانجلترا حملة مشتركة على مصر قررت مصير ما تبقى بها من القوات الفرنسية التى سلمت ونقلت عائدة إلى فرنسا . .

وبالرغم من فشل الحملة الفرنسية التى وجهت لاحتلال مصر فقد تركت من بعـــدها آثاراً بعيدة المدى : فقد نقلت مصر إلى الاحتكاك العنيف بمدنية أوروبا ومهدت لانفصالها عن الامبراطورية العثمانية كما جعلت اهتمام فرنسا بذلك الوادى يأخذ دوراً حاداً مما قربها فى كثير من المناسبات من الالتحام بالانجليز الذين كان اهتمامهم بالمسألة المصرية وطمعهم فى احتلال وادى النيل قد بدأ يأخذ طابعاً عملياً خطيراً . .

* * *

وفى عام ١٨٢٧ قام حاكم الجزائر ، التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للحكم التركى والذى كان يتميز بالحزم فى معاملة الرعايا

الأوروبيين ، قام هذا الحاكم بصفع القنصل الفرنسى على وجهه بمنفضة الذباب ، وتحملت فرنسا تلك الاهانة لمدة ثلاث سنوات إلى أن سنحت لها الفرصة عام ١٨٣٠ إبان حكم لويس العاشر الانتقام وتحقيق هدف قديم إذ عمدت لصرف الأنظار عن المحنة التى كانت تجتازها أسرة بوربون الحاكمة إلى تسيير حملة حربية ناجحة قوامها ٣٧ ألفاً من المشاة وقوة من الفرسان ورجال المدفعية استطاعت أن تنزل فى ميناء « سيدى فريج » بالقرب من مدينة الجزائر .

وقاوم الجزائريون هذه الحملة ولكن ليس بالقدر الذى يتكافأ وشهرتهم كمقاتلين أشداء ربما لأنهم كانوا يصطدمون للمرة الأولى بقوات أوروبية تامة التسليح . . وعلى أى حال فانه لم تكد تمضى ثلاثة أسابيع على نزول الحملة فى « سيدى فريج » ، حتى سقطت مدينة الجزائر فى أيدى الفرنسيين وأخذ الحاكم أسيراً ومن ثم نفى إلى مدينة نابولى بإيطاليا . .

أثارت هذه الحملة اهتمام انجلترا إلى حد بعيد فطلبت من فرنسا بياناً عن مشروعاتها فى تلك البلاد وردت فرنسا على هذا الطلب بأن بذلت وعداً بأن يكون احتلالها لتلك البلاد مؤقتاً وأنها سوف تجلو عنها بمجرد أن تستتب الأمور وتعود المياه إلى مجاريها . وكان طبيعياً أن يكون وعد فرنسا هذا ، الذى لم يقصد به غير التضليل

والتمويه . كوعود روسيا فى ذلك العهد فيما يختص باحتلالها لأوساط آسيا ، وكوعود انجلترا حتى اليوم فيما يختص بجلائها عن مصر ..

وسقطت بعد ذلك حكومة شارل العاشر ولم تستطع الحكومة التى خلفتها أن تحمل على عاتقها أمام الشعب الفرنسى مسئولية الانسحاب من الجزائر بل وعمدت إلى جوار ذلك إلى اتباع سياسة خاطئة تقوم على الجهل والاستبداد مع سكان البلاد من العرب ، لم تلبث أن بدت نتائجها سريعاً . فإن هؤلاء السكان وإن كانوا لم يبذلوا جهداً كبيراً فى حماية الحاكم التركى والدفاع عنه ، إذ كان يبدو لهم أجنبيا عن البلاد ، إلا أنهم ما كادوا يتحققون من أن بلادهم توشك أن تسقط فى يد المسيحيين الذين لم يبذلوا فى ذلك الحين ما يبرر تظاهرهم بمظهر المتسامحين الدينيين حتى هبوا لمكافحة الاستعمار ووجدوا فى زعامة الأمير عبد القادر وسيلة للكفاح الوطنى ضد الغزاة الأجانب .

واستطاع الأمير عبد القادر خلال الفترة بين عامى ١٨٣٥ ، ١٨٣٧ أن يلحق بالقوات الفرنسية الهزيمة تلو الأخرى فلم تجد فرنسا بدآ فى النهاية من أن تعقد معه معاهدة فى عام ١٨٣٧ اعترفت فيها بسلطانه على رقعة واسعة من غرب ووسط الجزائر .

ومضى عامان على هذا الاتفاق ثم عادت الحرب فنشبت

من جديد بين الأمير عبد القادر والقوات الفرنسية التى كانت قد أسندت قيادتها إلى المارشال بوجو Bugeaud ولم يتردد هذا المارشال فى أن يحمل فى قسوة ووحشية على الأمير عبد القادر كما لجأ فى قتاله معه إلى ضروب من الخسة والنذالة حتى استطاع فى عام ١٨٤١ أن يجرد البطل القومى من كل نفوذه وأراضيه حتى اضطر فى النهاية إلى الفرار إلى مراكش حيث عمل على تكوين جيش كبير عاود به غزو الجزائر ولكنه لم يغز فى تلك المرة بغير الهزائم المتلاحقة وإن كان قد استطاع فى مناسبات عدة أن يوقع بالفرنسيين خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد .

واضطر عبد القادر فى النهاية إلى التسليم بعد أن وعده القائد الفرنسى بأن ييسر له سبيل مغادرة البلاد آمناً ليعيش فى الأسكندرية أو نابولى . ولكن الحكومة الفرنسية لم توافق على هذه الشروط فنقضتها وأبقت عبد القادر فى سجن خاص فى إحدى القلاع الفرنسية إلى أن أصبح لويس نابليون امبراطوراً على فرنسا فأطلق سراحه وسمح له بالعيش فى مدغشقر إلى أن توفى عام ١٨٨٣ .

وكانت الجزائر عند ما احتلتها فرنسا لا تخضع لحكومة موحدة : فقد كان هناك حاكم الجزائر ، وحاكم أوران ، وباى مقاطعة كوستانتين الذى كان يحكم أكثر الشاطىء الشرقى

للجزائر بينما كانت قبائل البربر التى كانت تسكن الجبال وأطراف الصحراء تتمتع من الناحية العملية بالاستقلال التام . وكانت مقاطعة كوستانتين من أقوى المناطق وأعصاها على الغزو الفرنسى الذى فشل فى حروبه الأولى مع الباى فى الاستيلاء عليها والذى لم يتمكن بعد ذلك من اخضاعها تماماً إلا فى عام ١٨٤٧ .

فى هذا الوقت كانت فرنسا قد بدأت الحرب مع مراكش وأسكتت بذلك أية محاولة كان من الممكن أن يقوم بها سلطانها للتدخل فى شئون الجزائر كما كانت قد فرغت من اخضاع واحتلال كل بلاد الجزائر الواقعة إلى الشمال من جبال أطلس وهكذا لم يكد يقبل عام ١٨٤٨ حتى أعلنت فرنسا تبعية الجزء الجديد الذى احتلته من أفريقيا إلى نفوذها وضمه إلى مستعمراتها ليحكم كجزء من فرنسا ذاتها بعد أن قسمته إلى أقسام ثلاثة كان لكل قسم منها الحق فى إرسال مندوبين عنه لتمثيله فى البرلمان الفرنسى .

وفى عام ١٨٥٨ أعيد من جديد وضع الأسس التى يقوم عليها حكم تلك البلاد فأنشئت فى باريس وزارة جديدة باسم « وزارة الجزائر » وعين الأمير نابليون وزيراً لها ولكن هذا النظام لم يلبث أن ثبت فشله فصرف النظر عنه بعد عودة الامبرطور من زيارة لتلك البلاد فى عام ١٨٦٣ . وحكمت البلاد بعد ذلك

بواسطة حاكم عسكرى خولت له سلطات واسعة ووضعت تحت تصرفه كل القوى الكفيلة بتهدئة القبائل التى كانت قد هبت ثائرة فى ذلك الحين .

وبالرغم من كل ما بذل فقد ظلت تلك البلاد عرضة للقلاقل والثورات . وفى عام ١٨٧٠ عندما كانت الامبراطورية تحتضر تحت مدافع الألمان الفت لجنة لبحث الأمور فى تلك المستعمرة ولاقتراح علاج يكفل إعادة الأمور إلى نصابها . واستقر رأى اللجنة بعد مداولات طويلة على نبذ فكرة الحكم العسكرى واستبداله بحكم مدنى ولكن نظراً لما حدث فى أعقاب الحرب الفرنسية الألمانية من تمرد فى منطقة الجزائر الشرقية فان توصيات تلك اللجنة لم توضع موضع التنفيذ إلا فى عام ١٨٧٩ عندما الفت بالجزائر أول حكومة مدنية . ولقد كان من أول قرارات الجمهورية الفرنسية الجديدة التى قامت فى نهاية ١٨٧٠ هو منح الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين بالجزائر مع اختصاصهم بعدد كبير من الامتيازات ، وكان هذا القرار الخاطىء عاملا جديداً فى تمزيق الاستقرار بتلك المستعمرة بما أوجده من اختلاف فى المعاملة بين العرب واليهود وهو الاختلاف الذى خلق بعد ذلك كثيراً من المشاكل .

وفى الفترة بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٨٠ بذلت مجهودات متعددة

كثيرة لتسهيل إقامة الفرنسيين بالجزائر واستيطانهم لها كما فتح نفس الباب لسائر الأجناس الأوروبية الأخرى. وكان من بين ماعمدت إليه الحكومة الفرنسية فى هذا السبيل انها كانت تختار بعض الجنود من شباب الجيش ثم تعقد زواجهم على الفتيات الفقيرات بعد أن تتكفل هى بنفقات ذلك الزواج وبدفع قيمة الدوطة فى مقابل هجرتهم للإقامة فى الجزائر حيث كانت تمنح كل أسرة من هذه الأسر مقاطعة واسعة من الأراضى، ولكن أغلب هذه الزيجات كانت سرعان ما تنتهى بالفشل : فان الزوج ما يكاد ينفق الدوطة التى دفعتها له الدولة حتى يهجر زوجته الشابة ويعمل جاهداً على العودة إلى فرنسا عن أى طريق . ومع ذلك فان عام ١٨٧١ ماكاد يقبل حتى كان نحواً من ١١,٠٠٠ مواطن من سكان الالزاس واللورين قد استوطنوا الجزائر وحصلوا فيها على اقطاعيات من الأرض .

وفى الوقت نفسه ساعدت الطمأنينة التى بسطتها فرنسا على المعاملات التجارية على اجتذاب عدد كبير من الإيطاليين والمالطيين (الذين استوطنوا الجزء الشرقى من الجزائر) وعدد أكبر من الأسبانيين (الذين أقاموا فى جزئها الغربى) وعلى ربطهم بتلك المستعمرة . وما زالت اللغة الأسبانية حتى اليوم هى السائدة فى مقاطعة أوران على اللغة الفرنسية نفسها بينما تسود اللغة الإيطالية

فى بون وكوستانتين وداخل البلاد حتى منطقة تيبيا .

وعلى هذا النحو أتمت أوروبا استعمار الجزائر لا بوساطة دولها الشمالية فحسب وإنما أيضاً بسكان منطقة البحر الأبيض الذين يرتبطون عن طريق صلة الدم بأجناس البربر التى تقطن شمال أفريقيا . وفى عام ١٨٦٣ أصدر الامبراطور نابليون قانوناً بنزع ملكية الأرض من القبائل والاعتراف بملكية العرب الفردية لها . ولقد استطاع هذا القانون ، وإلى حد كبير ، القضاء على نفوذ القبائل وتفتيت المجتمع القبلى وربط العرب بالأرض حيث لا يدينون بالولاء لأية سلطة غير سلطة الحكومة القائمة ، وكان من الطبيعى أن تنشأ خارج حدود المناطق الخصبة الصالحة للزراعة حياة متنقلة بين السكان المتفرقين هناك بحكم ما تفرضه طبيعة الأرض القاحلة واستحالة زراعتها أو الاستقرار فى ربوعها . وعاونت هذه الحياة على المحافظة على روح الحرب والقتال فى صدور الأهالى هناك وعلى دفعهم بين الحين والآخر إلى القيام بالحروب والثورات . وفى حوالى عام ١٨٨٠ اضطرت فرنسا إلى جلب قوات عسكرية كبيرة بقصد اخماد ثورة عاتية قادها « أبو عمام » الذى استطاع أن يجمع حول رايته أغلب القبائل العربية التى تسكن المرتفعات الواقعة على حدود مراكش والتى لم تهدأ ثورتها إلا بعد أن تم انشاء خط حديدى يخترق أراضيها .

أما تونس فقد كانت تخضع هى الأخرى ، كالجزائر وطرابلس ، الحكم التركى . وكان يحكمها فى ذلك العهد ضابط تركى لم يلبث أن عمل على الاستقلال بها عن تركيا استقلالا مقيداً بشروط عديدة رضى بها فى مقابل حصوله على حق توارث الملك لافراد أسرته . فلما سقطت الجزائر فى يد الفرنسيين كان طبيعيا أن تتأثر تونس بتلك الأحداث التى تجرى بالقرب منها وأن تتحول أنظار فرنسا اليها .

وعمدت فرنسا أولا إلى الاحتفاظ بعلاقات الملاينة والملق بينها وبين تونس حتى أنها لم تتردد ، عندما نشبت الحرب بينها وبين الأمير عبد القادر ، فى أن تعرض على باى تونس أن يختار اثنين أو ثلاثة من أمراء اسرته ليتولون حكم أوران وكونستانتين وإن كانت الفكرة مع ذلك لم يقدر لها الخروج إلى حيز التنفيذ .

وفى عام ١٨٦٢ قام باى تونس بزيارة الامبراطور نابليون أثناء وجوده فى الجزائر غير أنه فى أواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر ، وكانت انجلترا حتى ذلك التاريخ حريصة على ضمان استقلال تونس ، جد فى الموقف الدولى عامل جديد أثر على توازن القوى فى منطقة البحر الأبيض وهو ظهور ايطاليا فى الميدان العالمى كدولة موحدة . وصاحب هذا تدهور خطير فى ميزانية تونس واقتصادياتها يشبه إلى حد كبير ما أصاب مصر

تحت حكم الخديوى اسماعيل . ولم يكن الباى مبذرا فحسب وإنما كان وزراؤه أيضا الذين لم يتورعوا عن سرقة البلاد بلا خجل وعن عقد القروض مع الدول الأجنبية لا لصالح البلاد وإنما لكى يزدادوا هم انتفاخا وثراء على حساب رفاهية مواطنيهم .

ومهدت المسألة المالية هذه الطريق لتدخل القوى الثلاث : انجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا . وهكذا تم فى عام ١٨٦٩ تأليف لجنة ثلاثية من أعضاء تلك الدول لمراقبة الميزانية التونسية وإخضاع شئونها المالية لتدخل الدول الثلاث .

وبدأت تجارة انجلترا مع هذه البلاد فى أوائل العقد السابع من ذلك القرن تتناقص رويداً رويداً بينما مضى التدخل الفرنسى يقوى ويشتد حتى انتهى بحصول فرنسا على حق امتياز انشاء شبكة للتلغراف وعلى عقد انشاء سكة حديدية هامة بالبلاد بعد أن تخلت عنها مؤسسة انجليزية كان قد سبق لها الحصول عليه .

وبدا واضحا أن الحكومـــــة المحلية فى تونس لن تقوى على الاستمرار مالم تسندها دولة أوروبية . وبالرغم مما كان يمكن لانجلترا أن تدعيه لنفسها من حقوق فى تلك البلاد فقد تنازلت لفرنسا عن كل شىء عن طريق ممثلها الرسمى فى مؤتمر برلين . وهكذا لم يبق لفرنسا من منافس فى تونس غير إيطاليا التى بالرغم من أنها كانت تطمع فى بسط سيادة روما القديمة على هذا الجزء

من شمال أفريقيا عادت هى الأخرى فآثرت الانسحاب عن تحدى فرنسا فى هذا النضال . وهكذا وجدت فرنسا الطريق خاليا أمامها فباتت تتحين الفرصة للقيام بعمل جرىء حاسم .

وسنحت الفرصة فى النهاية عندما قامت بعض القبائل التونسية بهجمات محدودة للسطو على حدود الجزائر فاستغلت فرنسا هذا الحادث البسيط لغزو تونس بقوات جرارة استطاعت أن تنتزع من الباى فى قصره الريفى معاهدة « قصر السعيد » التى وضعت تونس بمقتضاها تحت الحكم الفرنسى .

وعندما أعلنت هذه الأنباء وأذيعت خارج البلاد هاج الرأى العام ضد فرنسا وحكومة الباى التى سلمت البلاد للاستعمار الفرنسى . والتهبت تونس بالثورة ضد القوات الغازية التى الفت نفسها مضطرة للقتال فى أغلب مناطق تونس الشمالية . ولكن ما كاد ينقضى عام واحد حتى كان كل شىء قد انتهى وعاد الهدوء يبسط أستاره فوق البلاد . وفى عام ١٨٨٣ استبدلت معاهدة قصر السعيد باتفاق آخر اتمت به فرنسا وضع يدها نهائيا على تونس كما تم فى العام نفسه الاعتراف الرسمى من باقى القوى التى كانت تتنازع النفوذ فى تونس بشرعية وضع فرنسا فى تلك البلاد .

وفى عام ١٨٩٧ الغيت كافة المعاهدات التجارية السابقة التى

كان قد عقدها الباى واستبدلت بمعاهدات أخرى تضمن لفرنسا كافة الامتيازات بالنسبة لباقى الدول .

ومنذ بداية عام ١٨٩٨ اعتــبرت تونس نهائيا جزءا من الامبراطورية الفرنسية ولقد حدث بعد ذلك اما بالصدفة أو طبقا لخطة موضوعة ، أن تولى شئون فرنسا فى تونس رجال قديرون فى تنفيذ السياسة الاستعمارية فاستطاعوا أن يوطدوا أقدام فرنسا فى تلك المنطقة من العالم وأن يصمدوا للحركات الوطنية التى لم تكف يوما واحداً عن الاشتغال بها .

* * *

حدث بعد ذلك نتيجة لتوسع مستعمرة السنغال تحت قيادة الجنرال فيدهرب ، واحتلال الواحات الواقعة فى قلب الصحراء الكبرى كواحة وارجلا Wargla وواحه جوليا Golea أن بات الاتصال بين المستعمرات الفرنسية فى شمال أفريقيا وغربها هدفا يمكن تحقيقه وبدأ الاهتمام بمشروع انشاء الخط الحديدى المسمى « ترانس شاريان » يأخذ شكلا جديا واضحا بعد أن كانت فكرته خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر تبدو وكأنها خيالا بعيد التحقيق .

ولكن حدث فى عام ١٨٨١ أن اغتيلت بعثة « فلاترز » Flatters فى الصحراء الكبرى وأظهرت قبيلة الطوارق عداء سافرا

ومعارضة شديدة لأى امتداد للنفوذ الفرنسى عبر الصحراء فعادت فكرة الخط الحديدى إلى الانزواء من جديد وساعد على ذلك إلى حد كبير النفقات الباهظة التى كان يحتاج اليها إنشاء الخط وطبيعة البلاد غير المجزية التى كان مقدرا له أن يخترقها .

ولكن فرنسا كانت لا تزال حريصة على ألا تزحف أية قوة أوروبية لتقف سدا بين مستعمراتها فى شمال أفريقيا وامبراطوريتها فى النيجر فعمدت فى عام ١٨٩٠ إلى الحصول من الحكومة الانجليزية على ضمان لهذه النقطة وعلى اعتراف منها بامتداد منطقة النفوذ الفرنسى من مستعمرة النيجر حتى شواطئ بحيرة تشاد الشمالية الغربية .

واستطاع النفوذ الفرنسى بعد ذلك أن يتسلل إلى أراضى الكونغو فيما وراء النيجر وساور المسئولين الفرنسيين الحلم بانشاء امبراطورية واسعة تمتد من شواطىء البحر الأبيض شمالا حتى نهر الكونغو وشواطىء المحيط الأطلنطى جنوبا . وكانت فرنسا قد استطاعت منذ عام ١٨٢٩ أن توطد أقدامها فيما يمكن أن يسمى اليوم بساحل الكونغو أو غينيا السفلى فى الوقت الذى كان فيه الملك لويس فيليب يتابع بغير اهتمام كبير مشروع الاستيلاء على ساحل أفريقيا الغربية .

وكان الملك دينيس حاكم جابون فى تلك الاثناء قد أظهر

ترحيبا ورعاية لبعثات التجار والمبشرين الكاثوليكيين ووافق على وضع مملكته تحت النفوذ الفرنسى مما مهد لاحتلالها بواسطة الجيوش الفرنسية بعد ذلك عام ١٨٤٤ ، وقد تم بناء مدينة ليبرفيل ، العاصمة الحالية فى عام ١٨٤٨ بواسطة قافلة من العبيد كانت على إحدى السفن التى أسرتها البحرية الفرنسية ثم منحوا حريتهم بعد ذلك ليكونوا نواة السكان فى المدينة الجديدة .

ولقد كلفت شئون جابون السياسية فرنسا كثيراً حتى لقد عرضتها على انجلترا أكثر من مرة للمبادلة عليها بمستعمرة جامبيا . ولكن لم تلبث الرغبة التى كانت تسود فرنسا عام ١٨٨٠ بتوسيع مستعمراتها والحصول على امبراطورية واسعة مترامية الأطراف أن دفعتها إلى تغيير وجهة نظرها فيما يتعلق بجابون والعمل على مد نفوذها هناك لتصل به إلى شواطىء المحيط صوب الكاميرون ومصب نهر الكونغو وهو الطريق الذى كان المستر ستانلى ، الرحالة العالمى قد نجح فى اجتيازه .

وحدث قبل عودة مستر ستانلى من رحلته تلك أن دعا ملك بلجيكا جمعا من الجغرافيين والعلماء لعقد مؤتمر فى بروكسل يتولى بحث امكانيات احتلال أفريقيا بوساطة هيئة دولية تتولى شئون تلك القارة . واسفر المؤتمر عن تكوين لجان وطنية كان عليها أن تتولى باسم الدولة التى تمثلها مهمة استكشاف جزء

من القارة الأفريقية . وهكذا ارسلت فرنسا مسيو دى برازا De Brazza لاكتشاف منطقة جابون فى الوقت الذى كان فيه مستر ستانلى يستعد للقيام برحلته الثانية لاكتشاف منطقة الكونغو لحساب ملك بلجيكا .

واستطاع دى برازا أن يسرع فى تقدمه مارا بمنطقة الكونغو العليا عاقدا المعاهدات لصالح فرنسا ورافعاً أعلامها فى كل مكان تطأه قدماه ولم يلبث التنافس على الكشف والغزو ان استمر لمدة سنين طوال بين بعثة ستانلى ، التى أصبحت تدريجيا تعمل لخدمة حكومة بلجيكا رسميا ، وبين بعثة دى برازا . فلما عقد مؤتمر برلين فى ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ودار البحث حول إنشاء ولاية الكونغو الحرة رؤى وضع تلك الولاية تحت حكم ملك بلجيكا وكان معنى هذا أن تتنازل فرنسا لبلجيكا عن أكثر المناطق الغربية والشمالية من حوض نهر الكونغو . وقبلت فرنسا فى النهاية ذلك الوضع فى مقابل وعد من المؤتمر بانه إذا تقرر فى المستقبل نزع ولاية ملك بلجيكا عن الكونغو الحرة فانها سوف تعطى عندئذ لفرنسا .

وكانت فرنسا تطمع منذ زمن طويل ، حتى قبل أن يمد دى برازا نفوذها إلى شواطىء نهر الأوبنجى ، أن تتوغل شمالا نحو نهر شارى وبحيرة تشاد . وفى عام ١٨٩٠ كان بول كرامبل هو

أول مستكشف فرنسي يعبر مناطق البانتو المجهولة تاركا وراءه غابات الكونغو ليتقدم فى الأراضي الواسعة المنبسطة التى تكون السودان الوسطى . ولكنه هوجم وقتل كما قدمنا بالتفصيل فى الفصول السابقة وجاء من بعده عدد من المستكشفين أمثال دياوسكى ، وميستر ، وجنتيل . وقد استطاع الأخير كما رأينا أيضا فى الفصول السابقة أن يمخر عباب نهر شارى بباخرته النيلية المسلحة وأن يصل بها إلى بحيرة تشاد .

ولم تلبث فرنسا بعد أن تخلصت من المقاومة العنيدة الباسلة التى حمل رابح لواءها ان نجحت فى إبرام سلسلة من المعاهدات بينها وبين انجلترا والمانيا وبلجيكا اعترف لها فيها بمناطق نفوذها فى السودان الوسطى اعترافا تاما . .

وبهذا العمل الأخير نجحت فرنسا فى تحقيق حلمها القديم بإنشاء امبراطورية واسعة تمتد بغير انقطاع من الجزائر شمالا حتى الكونغو جنوبا وكان هذا هو أعجب عمل شهده تاريخ الجشع الاستعمارى وقد تمخض عن نزول تلك القوة الهزيلة المؤلفة من ثلاثين ألف رجل والتى هبطت شواطىء افريقيا فى صيف عام ١٨٣٠ فى ميناء « سيدى فريج » بالقرب من الجزائر .

ولكن هذا التوسع العجيب الذى قام على الخسة والخديعة والتنكيل بالمواطنين الأحرار واستغلال بساطتهم وسذاجتهم

لم يرض مع ذلك أطماع فرنسا التى كان يحكمها رأس المال المتزايد والذى انطلق كالغول باحثا عن أسواق ومستعمرات فى نهاية القرن التاسع عشر . فنراها فى مطلع القرن العشرين ، وبعد فراغها من إنشاء تلك الامبراطورية الواسعة ، تتطلع إلى مد نفوذها عبر النيل نحو الحبشة وخليج عدن ونرى صحفها تتحدث فى وقاحة عن أن الحبشة هى هدف فرنسا التالى .

ووقفت انجلترا وإيطاليا ، كما رأينا خلال الأعوام الخمسين الماضية ، فى وجه أحلام فرنسا المتعلقة بشرق أفريقيا ولم تستطع فرنسا بعد ذلك أن تحقق هدفا واحدا من أحلامها الجديدة سوى أن تبسط نفوذها على الصومال الفرنسى ، وأن تمده حتى يقترب من مدينة هرر . .

مراجع الكتاب

المراجع العربية

١ — الزبير باشا رجل السودان تأليف القائمقام سعد الدين الزبير الطبعة الأولى ١٩٥٢

٢ — تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته تأليف نعوم شقير بك طبع ١٩٠٣

٣ — تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل (الجزء الثانى) تأليف الأستاذ الياس الأيوبى طبع ١٩٢٣

٤ — حقائق الأخبار عن دول البحار (الجزء الثانى) تأليف اسماعيل سرهنك باشا طبع ١٣٤١هـ .

٥ — حاضر العالم الإسلامى . تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى وضع الأمير شكيب أرسلان وترجمة الأستاذ عجاج نويهض (الجزء الأول) طبع ١٩٢٥ .

٦ — أسفار محمد عثمان مرغنى فى غرب أفريقيا وانجلترا وعودته للسودان مع رفقائه بعثة نيجريا طبعة بيروت ١٩٢٧

٧ — دائرة معارف البستانى . المجلد العاشر .

المراجع الأفرنجية

1. La Chute de l'Empire de Rabah. Emile Gentil Paris 1902.

2. La Vie du Sultan Rabah. Les Francais au Tchad. Gaston Dujarric Paris 1902.

3. Rabah et les Arabes du Chari. Documents Arabes et Vocabulaire. Docteur Decorse. Medecin des Troupes Coloniales.

M. Gandefroy - Demombynes Professeur a l'Ecole Coloniale.

4. A La Conquéte du Tchad. Harry Alis. Paris 1891.

5. Rabeh. Das Tschadseegebiet Von. Dr. Max Freiherrn Von Oppenheim. Berlin 1902.

6. Gessi. Sette Auni Nel Sudan Egiziano. Milan 1891.

7. Nouveau Larousse Illustré. Dictionnaire Universel Encyclopédique Publié sous La Direction de Claude Augé Supplément.

8. A History of the Colonization of Africa by Sir Harry H. Johnston, K. C. B., G.C. M. G. 1905

9. Black Ivory. H. C. Jackson, Sudan Civil Service 1913.

10. Schweinfurth. The Heart of Africa.

11. Cyril Claydon. The rise of French. Imperialism. London 1945.

فهرس الكتاب



٣١ شارع الجيش ت ٤٣٨٩٢